محمد صلى الله عليه وسلم

ينصبّ الكلام هنا على مناقشة ما جاء في المادة الخاصة بالرسول عليه السلام. وهذه المادة كتبها المستشرق بوهل أيضا، وهو أشد مستشرقي الموسوعة إظهارًا لعداوته للإسلام وحقده على نبيه وكتابه[1]. وهو في أول المادة يعلن أن المصادر التي تتعرض لحياة الرسول عليه السلام وسيرته لا يوثق بها ولا يعتمد عليها[2]، أمّا لماذا فإنه لا يُعَنِّى نفسه بالجواب. ذلك أنه يرى أنه يكفي أن يصدر حكمه على شيء فنخر له على الأذقان سجدًا. ولكن للأسف ليس هذا من البحث العلمي في شيء، وإلاّ فكل إنسان قادر على أن يصدر من الأحكام ما شاء الله دون أن يشفعها بالدليل، بيد أن هذا لا يجعل من كلامه علمًا ولا ما إلى العلم بسبيل.

والنقطة التي أثارها بوهل هنا هي نقطة منهجية. ولقد رأينا أنه لم يسق لنا سببًا واحدًا يسوغ به نظرته هذه للمصادر التي تتعرض لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. فهذه ثغرة خطيرة في منهجه. وثمة ثغرة أخرى أخطر، إذ إن هذا الكاتب الذي رفض تلك المصادر هو نفسه الذي تكرر رجوعه لها واعتماده عليها وإحالته إليها على مدى مقاله، وهذا طبيعي، وإلا فمن أين سيأتي بالمعطيات التاريخية عن الرسول عليه السلام؟ أي أنه قد عاد فلحس دعواه العريضة تلك دون أن يشعر

---

(١) هذا واضح من آرائه التي سنناقشها هنا وكذلك من آرائه التي ناقشناها في مواضع متفرقة من كتابنا هذا. ومع ذلك يشيد به نجيب العقيقي (النصراني) إشادة كبيرة واصفًا إياه بالبعد عن الهوى في كتاباته عن الإسلام ودقة البحث وصدق المصادر. وبوهل مستشرق دانماركي، ولد في كوبنهاجن ١٨٥٠م، وتخصص في اللاهوت ثم تحول إلى الدراسات الاستشراقية. وقد زار مصر وفلسطين والشام وتركيا وتوفي عام ١٩٣٢م. انظر «المستشرقون» للعقيقي/ ٢/٥٢٢ ـ ٥٢٣.

(٢) ٢/٣٩٠.

بشيء من الخجل. وقد بدا تناقضه عقيب هذه الدعوى مباشرة، إذ في الوقت الذي رفض فيه الاعتماد على تلك المصادر في تحديد المدة التي قضاها النبي عليه الصلاة و السلام في مكة نراه يعتمد على بيت لحسان بن ثابت رضي الله عنة في تحديد هذه المدة بعشر سنوات ونَيِّف[٣]. أليس شعر حسان هذا أحد مصادر سيرة الرسول؟ فلماذا يثق به دونها؟ ثم أليس ما جاء في بيت حسان هو ما تقوله سائر المصادر؟ فما الجديد الذي أتى به بوهل؟ وكيف قبل ضميره العلمي هذا التناقض وذاك الادعاء الفارغ؟.

وهو يشكك أن يكون عمر الرسول عليه السلام عند تلقيه الوحي أربعين سنة ويصر على أنه ثلاثون فقط، وذلك دون أي مبرر، اللهم إلاَّ أن كلمة «عُمُرا» في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٤] لا يمكن أن تعني في نظره إلا نحو ثلاثين عامًا[٥] فانظر بالله عليك إلى هذه الطريقة العجيبة في رفض المعطيات التاريخية الثابتة والإتيان بدلاً منها بنتائج أخرى لا معنى لها ولا أساس تقوم عليه. من قال لبوهل إن «العمر» يعني «ثلاثين» بالذات؟ وماذا يقول لو جاء آخر وقال إنها لا تعني إلا «عشرين» أو «عشرا» أو «خمسين» أو «ستين»؟ هل يستطيع ذلك المستشرق أن يثبت لنا أن اللغة العربية حينما تستخدم كلمة «عمر» في مثل هذا السياق لا تقصد إلا ثلاثين سنة؟ لقد وردت هذه اللفظة في قوله تعالى مثلاً ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾[٦]، وواضح أن العمر هنا قد استغرق أجيالاً كثيرة. فماذا يقول بوهل في ذلك؟ ثم إن القول بأن الوحي قد شرع ينزل على النبي

(٣) ٢/٣٩٠.

(٤) يونس: ١٦.

(٥) ٢/٣٩٠، و١/٣٩١.

(٦) القصص: ٤٥.

في الثلاثين من عمره سوف يترتب عليه أن يكون قد تزوج خديجة وهو في الخامسة عشرة لا الخامسة والعشرين. فماذا يقول بوهل في هذا أيضًا؟ لقد كان ينبغي عليه قبل المكابرة أن يستشرف النتائج التي ستؤدي إليها مكابرته هذه. لكن من الواضح أنه هو ورفاقه لا يبالون بشيء في سبيل التشكيك في الإسلام ونبيه وتاريخه. والتشكيك هنا لا هدف له سوى تحطيم الثقة بالمصادر الإسلامية، إلا أننا ما دمنا نجد في المصادر أنه بُعث في الأربعين أو بعد ذلك بقليل فلا داعي لرفض هذه المعطاة التاريخية دون دليل حاسم. وأين هو؟

وجريًا على سنته في التشكيك نراه يقول إن الطبيعي، وقد كان محمد تاجرًا وزوجًا لخديجة التاجرة، أن يظهر في القرآن الاهتمام بالتجارة والتعبيرات التجارية وهو يمثل لذلك بما جاء في الآية ١٠٨ من سورة «البقرة» والآية ٩ وما بعدها من سورة «الجمعة»(٧).

وهذا كلام غير صحيح، فإن في القرآن كلامًا عن الزراعة مثلاً وتعبيرات وتشبيهات من مجالها أكثر مما فيه عن التجارة(٨). ثم إنه لو كان كلام بوهل صحيحًا لكان المفروض أن يبرز هذا في الوحي المكي أكثر من الوحي المدني، إذ كان محمد صلى الله عليه وسلم آنذاك قريب عهد بالتجارة في أموال خديجة رضي الله عنها وكانت خديجة لا تزال حية. ولكن العكس هو الصحيح بالنسبة للتعبيرات المستمدة من ذلك المجال. ثم إن الاهتمام في القرآن عمومًا بشؤون تلك الحرفة ليس بهذا

---

(٧) ٢/٣٩١.

(٨) انظر، في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، الآيات التي فيها مشتقات من مادة «زرع» و«حرث» و«حصد» و«نبت» و«فكه» و«مطر»... إلخ مثلاً. وكثيرة هي الآيات التي تتحدث عن النباتات والفواكه وكذلك الحيوان في القرآن الكريم.

الاتساع الذي يوحيه كلام بوهل[٩]. وهو على أية حال راجع إلى أن مكة كانت مدينة تجارية لا زراعية، فالانحراف الذي كان يجترمه أهلها هو في المقام الأول انحراف تجاري. وإن عدم استشهاد بوهل هنا إلا بالوحي المدني متمثلاً في نصَّيْ سورتي «البقرة» و«الجمعة» لدليل على ما نقول.

إن بوهل حينما يقول هذا إنما يقصد أن القرآن هو نتاج محمدي، ولهذا فهو يعكس ظروفه ونفسيته. وهو حر فيما يعتقد، بيد أن عليه أن يحترم قِيَم العلم وعقول القراء. ولسوف نبين فيما بعد عن طريق بعض المقارنات بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث أن القرآن لا يمكن أن يكون صادراً عن الرسول عليه الصلاة والسلام لأن أسلوبه غير أسلوب القرآن.

ويدعي بوهل أن الرسول قبل البعثة كان كسائر قومه وثنيًا. ومن بين ما يستند إليه في ذلك قول القرآن له عليه السلام: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝٧﴾[١٠]، و﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾[١١]، وأنه كما ذكر ابن الكلبي قد قدم مرة شاة للعُزَّى. كما يزعم أنه عليه السلام كان يعتقد في الطيَرة، وأنه أخذ من الطقوس الوثنية شعيرة الذبح[١٢].

ومن المؤكد أنه لو كان الرسول يمارس الطقوس الوثنية ويعتقد اعتقادات الوثنيين قبل البعثة لهبّ المشركون في وجهه من اللحظة الأولى قائلين له: لقد كنت بالأمس تمارس هذا الذي تنكره اليوم علينا، فما عدا عمَّا بدا؟ ومن جهة أخرى فالذي ذكرته المصادر التاريخية هو أنه كان يتحنث في غار حراء قبل البعثة ويمكث

(٩) إذ ينحصر في تأثيم التلاعب في الكيل والميزان.

(١٠) الضحى: ٧.

(١١) الشورى: ٥٢.

(١٢) ٢/٣٩١.

هناك بعيداً عن بيته وأسرته الليالي ذوات العدد. فلماذا يتجاهل بوهل هذا ويأتي بتلك الآراء الغريبة؟ أما قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ۝٧﴾ فلا يعني ما ذهب إليه الكاتب، بل هو يشير إلى فترة التحنث هذه التي طال فيها بحثه صلى الله عليه وسلم عن الحقيقة ولم يصل فيها إلى شيء قاطع تطمئن إليه نفسه اطمئناناً نهائياً. وقد قال أبناء يعقوب عليه السلام له عندما أخبرهم أنه يشم رائحة يوسف أثناء اقتراب البشير من بلدهم حاملاً قميص يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۝٩٥﴾[١٣]. ولست أظن أحداً يفهم من هذا أنهم يرمونه بالوثنية. كما وَصَفَ موسى عليه السلام نَفْسَه عندما قتل مصرياً خطأ قبل بعثته بأنه كان ﴿مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠﴾[١٤]، فهل قصد ذلك النبي الكريم أنه كان وثنياً آنذاك؟ وبالنسبة لآية سورة «الشورى» فالنبي عليه السلام لم يكن يدري فعلاً قبل بعثته شيئاً عن القرآن والإسلام. وكيف كان له أن يعرف ذلك وهو لم يكن قد اختير بَعْدُ رسولاً؟

وبالنسبة لابن الكلبي فإن عبارته هي: «وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها يوماً فقال: لقد أهديتُ للعُزَّي شاة عفراء وأنا على دين قومي»[١٥]. ويلاحظ أنه لم يذكر من الذي أبلغه هذا الكلام، ولا في أي ظرف أو لأي سبب تم تقديم القربان، ولا من كان مع الرسول عليه السلام من أبناء قومه حينذاك. ثم لماذا لم يَرْوِ ذلك غَيْرُ ابن الكلبي؟ إن مثل هذا الخبر الغريب الذي يصادم ما نعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبذه آنذاك الأصنام والوثنية وكل ما يتعلق بها لا يُقْبَل بمثل هذه السهولة. وقد قلت إنه لو كان الرسول قد مارس طقوس الوثنية في يوم من الأيام لاحتج عليه بها المشركون وسجَّل القرآن ذلك ضمن اعتراضاتهم

(١٣) يوسف: ٩٥.

(١٤) الشعراء: ٢٠.

(١٥) ابن الكلبي / الأصنام / تحقيق أحمد زكي / ١٩.

الكثيرة عليه وعلى الدين الذي جاءهم به.

أما دعوى بوهل في اعتقاد الرسول عليه السلام في الطِّيَرَة فإنها دعوى كاذبة، فقد كانت الطيرة من الأشياء التي حمل النبي عليه السلام عليها وعلى من يعتقدون فيها(١٦).

وبالنسبة لشعيرة الذبح فليس صحيحًا أن الرسول قد أخذها من الوثنية، بل هي من شعائر الحج كما وردت عن إبراهيم عليه السلام. ثم إنها في الإسلام لا تقدَّم لصنم أو وثن أو تُعْطَى للكاهن بل تعطى للفقراء والمساكين الجياع قُرْبَى إلى الله سبحانه وتعالى. فكل ما قاله المستشرقون إذن بهذا الصدد هو كلام سمج، إذ ليس في تلك الشعيرة أية شائبة» من الوثنية.

ثم يقول بوهل إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ أفكاره عن أهل الكتاب، وإن أعداءه كانوا على حق عندما اتهموه بأن له معلمين أجانب يتلقى عنهم ما يقوله في القرآن(١٧).

والرد على ذلك جد سهل، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خالف أهل الكتاب في معظم ما عندهم (إلى الصواب بطبيعة الحال)، ولهذا فقد كفروا به. فكيف يكون قد تلقى عنهم أفكاره الدينية؟ ولماذا لم يتقدم واحد (واحد فقط!) من هؤلاء الذين قيل إنهم كانوا يعلمونه، مؤيدًا مزاعم قريش، وبخاصة أن الرسول لم يكن له في مكة حول ولا طول، ولم يكن في يده آنذاك ما يبعث على الرغبة أو الرهبة، بل كان الحول والطول والرغبة والرهبة جميعًا عند القرشيين؟ وإذا كان الرسول يتعلم من

---

(١٦) انظر مثلاً أبو داود / طب/٢٤، وابن حنبل/١/٢٥٧، و٢/٢٢، ٢٢٠، و٥/٣٤٧، والبخاري / طب / ١٧، ١٩، ورقاق /٢١، ومسلم / إيمان / ٣٧٢، وسلام / ١٠٢، ١٠٧، ١١٠، والترمذي / قيامة / ١٦، وابن ماجة / مقدمة / ١٠، وطب / ٤٣ ....إلخ.

(١٧) ١/٣٩٢.

بعض أهل الكتاب فلماذا كان المشركون واليهود يحرصون على توجيه الأسئلة إليه عمّا في تلك الكتب وهم يعرفون أنه مطلع عليها من خلال أولئك المعلمين؟

وإن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قول ذلك المستشرق إن «التزمُّل» والتدثُّر» المشار إليهما في الآية الأولى من كل من سورتي «المزمل» و«المدثر» قد يكونان استعداداً لتلقي الوحي على الطريقة القديمة عند الكهان العرب(١٨). ذلك أن الرسول إنما تزمَّل وتدثَّر في بدايات الوحي من البرد الذي كان يشعر به بسبب الخوف الذي أصابه عند رؤيته جبريل وسماعه صوته وهو منفرد في غار حراء. فالتزمُّل والتدثُّر كانا بعد الوحي

لا قبله، وكانا فراراً منه لا استحضاراً له. ولكن ماذا نقول لبوهل وأمثاله، الذين يَقْلِبون أوجه الأمور إلى أقفائها؟ وإن الوحي عندما ناداه بـ «يا أيها المزمل» و«يا أيها المدثر» إنما كان يعلن رفضه لتزمله صلى الله عليه وسلم وتدثره، فكيف يكون رد فعل الوحي هو إنكار هذا التغطي الذي أراد به الرسول استجلابه؟

ويحاول بوهل أن يقنع القارئ بأن الوحي لم يكن شيئاً آخر غير ما كان عند الكهان : فالسجع هنا وهناك، وكذلك القسم بمظاهر الطبيعة...إلخ(١٩). ولا أحب أن أقف طويلاً عند هذه الأمور الشكلية التي لا تقدم ولا تؤخر، والتي أرجح أن يكون الكهان قد أخذوها من بعض الأديان السابقة ثم انحرفوا بها نحو خداع الناس وإيهامهم أنهم قادرون على استشفاف الغيب، وهو الشيء الوحيد تقريباً الذي كان العرب يؤمنون الكهان من أجله، والذي نفى القرآن عن الرسول عليه السلام القدرة عليه(٢٠). وفوق ذلك فالكهان كانوا يأخذون أجراً على ما يقولون، أما الرسول

(١٨) ٢/٣٩٣.

(١٩) نفس الصفحة والنهر. وانظر أيضاً ٢/٢٧/مادة «كاهن».

(٢٠) الأنعام: ٥٠، والأعراف: ١٨٨، وهود: ٣١.

فــلا[٢١]. وإني لأستغرب كيف تجاهل بوهل كل القيم والمبادئ النبيلة التي جاء بها محمد عليه السلام والتي نقلت العرب من أُمّة نكرة متخلفة وجعلت منهم أصحاب إمبراطورية واسعة عريضة وقوّاداً عالميين وعلماء عظامًا في كل مجالات المعرفة، ودفعت الحضارة البشرية إلى الأمام دفعة ليس لها مثيل، وركّز على هذه المشابهات الشكلية وكأنها هي كل شيء؟ إن ذلك يشبه اعتراض الكفار على أن الرسول كان بشراً ولم يكن من الملائكة! كذلك يمكن بهذه الطريقة لأي معاند أن يعترض على القرآن لأنه أتى بلغة بشرية واستخدم نفس الألفاظ التي يستخدمها سائر العرب؟ إن اللغة هي مجرد وسيلة، والعبرة كل العبرة بالمضمون. ومع ذلك فاللغة في القرآن لها خصائصها التي لا توجد في أي كلام آخر بما فيه الحديث النبوي نفسه، مما سنشير إليه لاحقًا في موضعه بمشيئة الله.

ويشير بوهل إلى اتهام المؤلفين البيزنطيين له عليه السلام بالصَّرْع، قائلاً إن علماء التحليل النفسي المحدثين يوافقونهم على رأيهم هذا. وهو يتظاهر بالحياد والتواضع قائلاً في مسكنة: «إن علينا بطبيعة الحال أن نترك لأولئك المحللين مهمة تحديد الطبيعة الدقيقة لحالته»[٢٢]، وذلك دون أن يذكر لنا أسماء هؤلاء المحللين النفسانيين، ولا على أي أساس قالوا ذلك إن كانوا قالوه فعلاً، وهل عُرضت عليهم أعراض الوحي التي كانت تنتاب الرسول عليه السلام حين نزول القرآن عليه عرضا أمينًا. وقد كان جيبون، المؤرخ الإنجليزي الشهير، حاسمًا في وصف هذا الاتهام للرسول عليه السلام بالصَّرْع بأنه «ادعاء سخيف من

(٢١) الأنعام: ٩٠، ويوسف: ١٠٤، والفرقان: ٥٧، وسبأ: ٤٧، وص: ٨٦، والشورى: ٢٣، والطور: ٤٠، والقلم: ٤٦.

(٢٢) ٢/٣٩٣.

اليونانيين»[٢٣]. كما رفض وليم موير تفسير ظاهرة الوحي بالصرع، قائلاً إن نوبة الصرع تمنع المصروع من تذكر ما مرَّ به أثناءها[٢٤]. وممن يرفضون أيضًا القول بالصَّرْع لامنس وفون هامر بورجشتال[٢٥].

وعلى كل حال فهذه هي أعراض الصرع كما وردت في: New Medical Dictionary لمحرّرَيْه F.M.Margerison و A.D. Banker في مادة Epilepsy (أي الصَّرْع): «الصرع هو مرض يصيب الجهاز العصبي، ويميزه فقدان الوعي، وكذلك التقلصات في كثير من الأحيان... ويبدأ الصرع عادة في الطفولة... والمصابون بالصرع هم أشخاص انفعاليون وغير متزنين، وهم مهيأون للتقوقع بعيدًا عن الدنيا والعيش في الأوهام. وعادة ما تنشأ نوبة الصرع عن الضغط الانفعالي أو التهيج اللاإرادي. أما عن أعراض الصرع ففي الحالات العنيفة... تحدث النوبة فجأة ويسقط المصروع كاللوح، وغالبًا ما يؤذي نفسه أثناء ذلك إيذاءً شديدًا، وتنبسط العضلات وتنقبض بشدة. أما الوجه فيكون أولاً شاحبًا ثم ينقلب إلى الازرقاق مع انسداد مجرى التنفس. وبعد بضع ثوان تأخذ العضلات في الارتعاش والتشنج، وتدور حدقتا العين، وينقبض الفك ويرتخي، وقد يعض المصروع لسانه بقوة. كذلك ربما تبول أو تبرز على نفسه. وتدريجيًا يروح المريض في غيبوبة فترتخي العضلات حينئذ وينام لعدة ساعات، ثم يستيقظ في نهاية النوبة وعقله يعاني

(23) Gibbon,The Decline and Fall of the Roman Empire, William Benton, Chicago - London, 1978, Vol. II, P.243.

وانظر الترجمة العربية بعنوان «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» / ترجمة د. محمد سليم سالم / ٣/٧٧.

(24) Sir William Muir, Life of Mohammad, John Grant, Kedinburgh, 1912, PP. 14 - 29.

(٢٥) انظر د. بكري شيخ أمين / التعبير الفني في القرآن/ ١٩.

بعض التشويش. وفي بعض الحالات لا تنتهي النوبة بعد بضع دقائق بل تستمر مع ازدياد النبض وارتفاع درجة الحرارة... وقد يحدث أن يفيق المريض ظاهريًا فيمارس أموره من غير أن يكون واعيًا فعلاً بما يفعل. ومن غير المستبعد أن يرتكب مثل هذا الشخص جريمة قتل في هذه الحالة... أما في نوبات الصرع الخفيفة فقد يغيب الوعي لبضع ثوان دون أن تصاحبه أية تقلصات. وقد يُعْرَف عن مثل هذا المريض أنه عرضة لشحوب الوجه المفاجئ وفقدان خيط الحديث. وقد يظهر عليه أنه رجع إلى حالته الطبيعية بعد بضع ثوان، ومع ذلك فقد يرتكب هذا الشخص عملاً إجراميًا في هذه الثواني القليلة ولكنه لا يُعَدُّ مسؤولاً عنه. وهناك الصرع الجاكسوني... وقد تأتي نوبته على هيئة تنميل في أصابع إحدى اليدين أو إحدى القدمين ثم ينتشر التنميل في سائر العضو. وغالبًا ما يحتفظ المصاب بوعيه طوال مدة النوبة... وأثناء النوبة لا بد أن يُمْنَع المصروع من إيذاء نفسه بأن يُدَسّ شيء بين أسنانه حتى لا يعض لسانه»(٢٦).

وباستطاعة القارئ أن يكتشف بنفسه من غير أية مشقة زيف محاولة الربط بين عوارض الوحي وبين أعراض الصرع ونوباته، فلا الرسول كان شخصًا انفعاليًا غير متزن ولا هو كان يتقوقع داخل أوهامه بعيداً عن الدنيا والناس من حوله، بل كان يشارك بكل طاقته وانتباهه واهتمامه في نشاطات الحياة راعيًا وتاجرًا وزوجًا وداعيًا الناس إلى ربه وحاكمًا وقائداً عسكريا... إلخ. ثم إنه لم يحدث قط، حين كان ينزل عليه الوحي، أن سقط كاللوح أو آذى نفسه بعضّ لسانه مثلاً. كذلك لم يكن فكّه ولا عضلاته تنقبض وترتخي على نحو تشنجي. أما التبول والتبرز فلا مكان لهما هنا. كما أن عقله عليه السلام لم يعرف التشوش ولم يرتكب مرة عملاً خطيراً لا أثناء

(٢٦) انظر مادتي «Epilepsy و Epileptic Fit» في «Encyclopaedia Britannica».

الوحي و لا بعد انقشاعه. وأيضًا لم يقع منه البتة أن فقد خيط الحديث وهو يتحدث مع أحد من أصحابه حين نزول الوحي عليه، أو شعر بتنميل في أصابع يديه أو قدميه قط، أو ارتفعت درجة حرارته أو تسارع نبضه. على العكس كان عليه السلام يحسُّ ببرد في ثناياه[٢٧]. أما وجهه الكريم فقد كان يحتقن حمرة (وقد يربدّ) ولكنه لم يكن يزرقّ. وكذلك لم يكن مجرى تنفسه ينسدّ. ولم يحدث أن صرخ عليه السلام عند مجيء الوحي. ثم إن أعراض الوحي من صلصلة الجرس وسماع مَنْ معه دويًا حول وجهه الشريف وثقل جسمه الشديد فجأة ليس لها في نوبات الصرع أي تفسير. وفضلاً عن ذلك فإنه عندما كان الوحي يَفْصِم عنه كان يسأل عن صاحب السؤال ويجيبه في التوّ بحل مشكلته حسبما جاء به الوحي في لغة أدبية هي أرقى ما عرف العربي. أي أنه لم يكن في غيبوبة شأن المصروعين، بل كان وعيه منفتحًا على عالم الغيب يتلقى الوحي الذي ينزل عليه من السماء. بل إنه، عقب الوحي الذي نزل بتبرئة عائشة من الإفك الذي بُهتت به، قد أفاق وهو يضحك من البِشْر[٢٨]. ولا يمكن أن تكون هذه من علامات الصرع.

كذلك هل يظن ظانٌّ أن الرسول كان مصابًا بالصرع ثم يسكت عنه أعداؤه من مشركين ويهود؟ إنه لم يحدث أن اتهمه أحد منهم بذلك، بل الذين أشاعوا هذا الإفك هم الكتاب البيزنطيون الذين لم يَرَوْه قط، ثم جاء المستشرقون فقبضوا على هذا السخف بأسنانهم وأظفارهم وحاولوا أن يُلْبِسوه ثوبًا من العلم ملوحين بالتحليل النفساني، لكي يلبّسوا على القراء ويوهموهم أنهم قد فسروا الوحي المحمدي التفسير الصحيح. وهيهات!

(٢٧) انظر السيوطي / الإتقان في علوم القرآن/ ١/٦٠.

(٢٨) انظر صحيح البخاري / تفسير سورة «النور».

ويقفز بوهل عقيب ذلك إلى القول بأنه من الناحية العلمية فإن الصوت الذي كان محمد يسمعه (يقصد الوحي) لم يكن شيئًا آخر غير ما كان قد سبق له سماعه من هنا وههنا ثم طفا الآن من اللاوعي(٢٩).

وسؤالنا هو: هل المصروع يسمع شيئًا؟ ثم كيف تفسَّر الظاهرة نفسها بالصرع مرة وانبثاق الأفكار والأصوات من اللاوعي مرة أخرى؟ أليس هذا هو الخلط بعينه ؟ كذلك فإن القرآن في معظم الأشياء يخالف ما عند أهل الكتاب (وهو ما يتهم بوهل الرسول بأنه كان يسمعه من هنا وههنا ويختزنه عقله الباطن)، فماذا يقول بوهل في هذه المسألة؟ ثم إن كثيراً جداً مما في القرآن مرتبط بحوادث كانت تقع لتوها أو أسئلة كانت تُلْقَى على الرسول ويحتاج أصحابها إلى إجابات فورية عنها، وكان الوحي ينزل في الحال بالتعليق على الحادثة أو بالإجابة على السؤال المطروح. وهي حوادث وأسئلة لا علاقة لها في الأغلب الأعمّ بما عند أهل الكتاب، فكيف تفسر ذلك نظرية اللاوعي، والوحي في هذه الحالة لا علاقة له بما يزعم بوهل وأمثاله أن الرسول قد سمعه من هنا وههنا؟

كذلك ما أكثر الوحي الذي نزل يعارض رغبات الرسول صلى الله عليه وسلم أو يعاتبه ويخطئه! وهو ما يتعارض مع تفسيره بأنه طفو لأفكاره ومشاعره المختزنة في لا وعيه صلي الله عليه وسلم. ومن ذلك نَهْي القرآن له عليه السلام هو والمسلمين أن يستغفروا لأي مشرك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣)﴾(٣٠)، واستنكاره سبحانه إطلاق النبي سراح أسرى المشركين في بدر في مقابل مبالغ من المال بدلاً

(٢٩) ٢/٣٩٣.

(٣٠) التوبة: ١١٣.

من قتلهم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[٣١]، وقوله عز شأنه له بعد أن أذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة مؤتة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٣٢]. وقريب منه توقف الوحي في بداية الدعوة فترة من الزمن مما سبب للنبي عليه الصلاة والسلام آلامًا لا تُحتمل، وكذلك بطء الوحي الذي نزل يبرئ عائشة رضي الله عنها، التي كان يحبها ويحب أباها حبًا شديداً، مما رُميت به من قِبَل المنافقين ومن انخدعوا بما قالوه زوراً وبهتاناً، فلم ينزل إلا بعد مرور شهر كان أثقل على نفسه صلى الله عليه وسلم من سنوات طوال وفضلاً عن ذلك كله فإن أفكار اللاوعي ومشاعره لا تتمثل لصاحبها في هيئة صلصلة جرس أو شخص يُرَى ويُسْمَع كما كان يحدث في الوحي المحمدي.

وعجيب أن يشهد الكاتب للرسول مع ذلك بالأمانة لصبره على معاداة قومه اللاهبة واقتناعه التام بنبوته وعدم وجود غرض شخصي له[٣٣]. باللّه كيف يمكن التوفيق بين هذا وبين اتهامه له قبيل ذلك بالصرع؟ ورغم هذا كله ينقلب بوهل على عقبيه كرة أخرى قائلاً إن الرسول كان في بعض الأحيان يتصنع الوحي[٣٤]. إن ذلك في الحقيقة لهو الخلل العقلي بعينه، فنحن بهذا لا نعرف ماذا كان الرسول بالضبط في نظر بوهل: هل كان مصابًا بالصرع؟ هل كان الوحي عبارة عن انبثاق أفكار وأصوات من عقله الباطن؟ هل كان الرسول نبيًا حقًا ما دام ذلك المستشرق يصفه

(٣١) الأنفال: ٦٧، ٦٨.

(٣٢) التوبة: ٤٣.

(٣٣) ٢/٣٩٣.

(٣٤) نفس الموضع السابق.

بالأمانة والاقتناع التام برسالته وصلابته في القيام بواجبات هذه الرسالة ثلاثة وعشرين عامًا؟

كما يتهم هذا المستشرق المؤرخين وكتاب السيرة المسلمين بالمبالغة الشديدة في الكلام عن الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون على أيدي الكفار، ويعزو هذه المبالغة المزعومة إلى رغبة هؤلاء الكتاب في تضخيم التضحيات التي قام بها المسلمون الأوائل وتلطيخ سمعة الأُسَر القرشية الكبيرة. وهو يذكر عروة (بن الزُّبَيْر) في هذا السياق قائلاً إنه أشار إلى فتنتين اثنتين فقط اضطرتا المسلمين الأولين إلى الهجرة(٣٥).

وإننا لنعجب أشد العجب من هذا الإصرار على اتهام الكتاب المسلمين بالمبالغة الشديدة في كلامهم عن اضطهادات قريش للمسلمين الأوائل، إذ أين دليله على هذا؟ ومن أين له بذينك السببين اللذين ذكرهما؟ وهل قال المسلمون شيئًا عجبًا غير معقول؟ الحق أن ما قالوه أقل مما يحدث عادة في مثل هذه الظروف، فالمعروف أن الدعوات الجديدة تجلب على أصحابها وأتباعهم كثيرًا جدًا من ألوان الاضطهاد والتعذيب. فما بالنا بدين كالإسلام أتى فقلب الأوضاع الجاهلية رأسًا على عقب، وذلك في مجتمع وثني يقدس التقاليد والأسلاف وتسوده العصبية القبلية ويغلق قلبه وعقله في وجه كل جديد؟ ثم ما حكاية الرغبة في تلطيخ سمعة الأسر القرشية الكبيرة؟ إن بوهل يقصد أن الكتّاب في عهد العباسيين قد أرادوا التقرب إليهم بتشويه بني أمية. لكن ألم يذكر هؤلاء الكتاب أنفسهم أبا لهب مثلاً بين هؤلاء المضطهِدين، وهو هاشمي مثل العباسيين؟ بل ألم يذكروا أن أبا طالب، وهو هاشمي أيضًا، قد مات على الكفر على حين أسلم أبو سفيان وزوجته وابنه معاوية...الخ؟

(٣٥) ١/٣٩٥.

أما عروة، الذي يحاول بوهل الإيحاء بأنه لم يذكر إلا فتنتين (وهل الفتنتان اللتان تدفعان قومًا إلى ترك بلادهم وأهلهم بالشيء القليل؟)، فإنه قد ذكر إلى جانب ذلك أنه لما عاد رسولا قريش خائبين من الحبشة أجمع المشركون مكرهم وأمْرهَم على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية، فكان أن انحاز به بنو هاشم إلى شِعْبهم ليحموه منهم، مما أثار غيظ المشركين ودفعهم إلى مقاطعتهم ومحاصرتهم في ذلك الشعب حتى يهلكوا جوعًا أو يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣٦). وهو يذكر ما كان أبو طالب يلجأ إليه حينذاك من تمويه ليضلل هؤلاء المشركين عن الفراش الذي كان يبيت فيه كل ليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣٧). كما أنه قد تحدث عن البلاء الذي صُبَّ على رسول الله عليه السلام بالطائف عندما ذهب إليها يدعو أهلها إلى الإسلام فرموه بالحجارة التي أدمت قدميه واستهزأوا به أعظم الاستهزاء(٣٨). ومما رواه أيضًا تآمر المشركين على أن يقتلوا الرسول أو

(٣٦) ومع ذلك يشكك بوهل في حدوث هذه المقاطعة، وحجته أنها لم ترد في القرآن ولا عند عروة (٢/٣٩٦). فأما أنها لم ترد عند عروة فمن الواضح أن ذلك كذب. وأما احتجاجه بأنها لم ترد في القرآن فكم من حوادث السيرة مما لا يماري فيه بوهل ولا غيره لم يرد فيه. خذ مثلاً إيمان خديجة وإنفاقها مالها في سبيل الله أو موتها وتسمية العام الذي توفيت هي وأبو طالب فيه بعام الحزن. هل ورد ذلك في القرآن؟ أم هل ورد فيه إيمان حمزة أو عمر رضي الله عنهما، هذا الإيمان الذي كان فتحًا؟ كذلك هل وردت فيه الهجرة إلى الحبشة؟ أم هل وردت فيه غزوة بني قينقاع؟ وهل وردت فيه غزوة مؤتة؟ بل هل ورد فيه زواجه عليه السلام من عائشة أو حفصة أو أم سلمة مثلا؟

٣٧) انظر «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير / جمع وتحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي / ١١٤.

(٣٨) السابق / ١١٨.

يسجنوه أو يخرجوه، مما اضطره عليه السلام إلى الهجرة تاركًا وراءه وطنه وداره[٣٩]. وذلك غير ما لجأ إليه المشركون من خديعة عياش بن ربيعة، الذي كان قد هاجر إلى يثرب، إذ أرسلوا إليه من ضحكا عليه وأوهماه أن أمه حزينة لهجرته وأنها قد قاطعت طيب العيش حتى تراه، وأعطياه العهد والميثاق على صدقهما وأنهما لا يريدان شرًا حتى صدَّقهما وخرج معهما فأوثقاه في الطريق وحملاه إلى مكة[٤٠]. وانظر كذلك ما قاله عن تعذيب المشركين خُبَيْبًا وزيد بن الدثنة وصلْب الأول وقَتْل الثاني[٤١]... وغير هذا. وكلام عروة إنما هو في المغازي أصلاً، فمن الطبيعي ألا يتعرض للتعذيب الذي أوقعه المشركون بنبيّ الإسلام وأتباعه. ومع ذلك فإنه قد ذكر من ذلك أكثر جدًا مما أراد بوهل أن يوهمنا بأنه فعل.

ويردد بوهل فرية قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض الوقت ألوهية اللات والعزى ومناة وشفاعتهن (يقصد ما يقال من أنه كانت هناك آيتان عن هذه الأصنام تجريان هكذا: «إنهن الغرانيق العُلاَ وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى»)، ويؤكد أن هذه القصة لا يمكن أن تكون زائفة، لأنه لا يمكن أن يكون المسلمون اخترعوها، أي لما فيها من إساءة للرسول عليه السلام والإسلام[٤٢]. ويمضي قائلاً إن الآيتين ٥٦ و٦٧ من سورة

---

(٣٩) السابق / ١٢٨، ١٢٩.

(٤٠) السابق / ١٢٧، ١٢٨.

(٤١) السابق / ١٧٦، ١٧٧.

(٤٢) ردد ألفرد جيوم أيضًا ذلك الكلام وهذه الحجة في كتابه: «Islam» / ٣٠. وانظر كذلك «Maxime Rodinson, Mohammed , translated into English by Anne Carter, P.100». وجدير بالذكر أن بعض المستشرقين، مثل كايتاني، يرفضون قبول هذه الرواية. انظر: «Joseph Hubby, Christus: Manuel d' h Histoir des Religions, P. 785.».

«الأنعام»[٤٣]، والآية ٧٥ وما بعدها من «الإسراء»، والآية ١١٣ من «النساء» تبين لنا كيف أن ذلك من الوجهة النفسية ممكن جداً[٤٤].

ونبدأ بالآيات المشار إليها. وهي تدل على عكس ما ذهب إليه بوهل، ففي الآية الأولى نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، وهي كما نرى تخبرنا أن الله سبحانه قد نهاه عن أن يعبد أي صنم أو وثن مما يعبده المشركون. أما الآية الثانية فإنها تأمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عمن يخوضون في آيات الله وعن الجلوس معهم مجرد جلوس. ويقول المولى عز وجل في الآية الثالثة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٧٥﴾﴾. وبغض النظر عن مناسبة نزول هذا النص القرآني الكريم فإنه ينفي أن يكون الكفار قد نجحوا في فتنة النبي عليه السلام ودفعه إلى افتراء شيء لم ينزل الوحي به. ذلك أن الله سبحانه قد ثبته وعصمه من الاستجابة لأهوائهم، وإلا فلو وقع المستحيل واستجاب الرسول لهم لكان الله قد أوقع به ذلك العقاب الصارم الذي تصفه الآيات. وتبقى الآية الأخيرة، وهي قوله تعالى تعقيباً على محاولة بعض المنتسبين إلى الإسلام خداع النبي عليه السلام وتضليله بعَزْو السرقة التي ارتكبها أحدهم إلى اليهود: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن

(٤٣) واضح أنه يقصد الآية ٦٨ لا ٦٧، لأنه ليس في هذه شيء مما يشير إليه، إذ هي تجري هكذا: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

(٤٤) ١/٣٩٦. وانظر أيضاً ١/٢٣٥ / مادة «مناة».

شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾[٤٥]. فهذه الآية تبين أن الله سبحانه قد حماه من أن يتأثر بكلام هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام الذي أرادوا به تبرئة صاحبهم وإلصاق التهمة ظلمًا وافتراء بأحد اليهود. فماذا فيها أو في الآيات السابقة مما يمكن أن يبين لنا، حسب زعم بوهل، أن قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض الوقت ألوهية اللات والعزى ومناة وشفاعتهن لدى الله ممكن جدًا من الناحية النفسية؟

أما قوله إن المسلمين لا يمكن أن يكونوا اخترعوها فهذا صحيح، ولكن على معنى غير ما يقصده، فإن أغلب الروايات التي أشارت إلى هذه القصة تذكر أن الشيطان هو الذي قال ذلك لا الرسول عليه السلام. أما الرواية التي تقول إن لسان الرسول قد نطق به فإن ابن إسحاق (بن خزيمة) مثلاً قد نسبها إلى الزنادقة[٤٦]، وجعلها القاضي عبد الجبار من روايات الحشوية ودسائس الملاحدة[٤٧]. ويقول سيد أمير علي إنه لما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسورة «النجم» وأخذ يتلوها عند الكعبة وبلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) ﴾ خاف أحد المشركين أن يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بشيء من ذمّها فسبق إلى مدحها بالآيتين المذكورتين[٤٨]. وهو تفسير وجيه،

---

(٤٥) المرجو أن يعود القارئ إلى مجموعة الآيات التي تتناول هذا الموضوع من سورة «النساء» وتفسيرها (وهي تبدأ بالآية ١٠٥) لتكون عنده فكرة كاملة عن هذه القضية. وفي سبب نزول هذه الآية يُرْجَع مثلاً إلى «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي، و«أسباب نزول القرآن» للواحدي.

(٤٦) انظر د. محمد حسين هيكل / حياة محمد / ١٦٥.

(٤٧) انظر القاضي عبد الجبار / تنزيه القرآن عن المطاعن / ٢٧٤.

(48) Ameer Ali, The Spirit of Islam, P.34.

لأن القرشيين كانوا يقولون ذلك فعلاً عند طوافهم بالكعبة في الجاهلية(٤٩)، كما لم يرد في كتب الصحاح أن الرسول قد نطق بهذه الآيات. أما ابن هشام فإنه لا يذكر عن هذه القصة أي شيء.

ثم كيف يقال إن الرسول عليه السلام قد قرأ هاتين الآيتين المزعومتين مع آيات سورة «النجم»، مع أن تلك السورة كلها من أول آية فيها إلى آخر آية (وليس الآيات التي تلي هاتين الآيتين فقط كما يقول د. محمد حسين هيكل)(٥٠) ترفضها بعنف؟ ذلك أن مضمونها والجو الذي يخيم عليها من مفتتحها إلى مختتمها(٥١) يؤكّدان العداء المستحكم بين الرسول وقومه. فكيف يمكن أن يَرِد في مثل هذا السياق آيات تمجد بعض أصنام قريش؟ إن ذلك لهو عين المستحيل!

كذلك فإن الآيتين المزعومتين تجعلان هذه الأصنام مناطًا للشفاعة من غير تعليق لذلك على إرادة الله وإذنه، وهو ما لم يسنده القرآن على هذا النحو لأي كائن مهما كانت منزلته عند الله. وفي سورة «النجم» ذاتها نقرأ قوله عز شأنه ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾**﴾ (٥٢) بتعليق قبول شفاعة الملائكة أنفسهم على إذن الله ورضاه.

وإذا تناولنا هاتين الآيتين المزعومتين تناولاً أسلوبيًا اتضح لنا أنهما ليستا من نسيج القرآن الكريم ولا تمتّان إليه بصلة. لقد بدأت آيات سورة «النجم» المتعلقة بالأصنام الثلاثة هكذا: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾**﴾(٥٣)، وقوله: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ**﴾ قد ورد في القرآن إحدى وعشرين مرة كلها في

(٤٩) انظر ابن السائب الكلبي / الأصنام / تحقيق أحمد زكي / ١٩.

(٥٠) انظر هيكل حياة محمد /١٦٥.

(٥١) نزلت السورة كلها دفعة واحدة ما عدا الآية ٣٢، التي يذكر بعض العلماء أنها مدنية.

(٥٢) الآية ٢٦. (٥٣) النجم: ١٩ – ٢٠.

خطاب الكفار، ولم يحدث أن استُعْمِل هذا التعبير في تلك المرات الإحدى والعشرين في ملاينة أو تلطف، بل ورد في هذه المواضع كلها في مواقف الخصومة أو التهكم أو التقريع والتهديد أو ما إلى ذلك بسبيل[٥٤]، فكيف يمكن إذًا أن يجيء هذا التعبير في سورة «النجم» بالذات في سياق التلطف للكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ ثم إنه قد ورد في الآية الثانية من آيتي الغرانيق كلمة «تُرْتَجَى»، وهي أيضًا غريبة عن أسلوب القرآن الكريم، إذ ليس فيه أي فعل من مادة «رجا» على صيغة «افتعل». أما ما جاء في إحدى الروايات من أن نص الآية الأخيرة من الآيتين المزعومتين هو: «وإن شفاعتهن لتُرْتَضَى»[٥٥] فالرد عليه هو أن هذه الكلمة ، وإن وردت في القرآن ثلاث مرات ، فإنها لم تقع في أي منها على الشفاعة ، وإنما نستخدم مع الشفاعة عادة الأفعال الآتية: «تنفع» أو «تُغْنِي» أو «يَمْلِك»[٥٦].

مما سبق يتأكد لدينا على نحو قاطع أن الآيتين المزعومتين ليستا من القرآن وليس القرآن منهما في شيء . وإن الإنسان على أية حال ليعجب من هذه الغيرة

(٥٤) يرجع في ذلك إلى «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم».

(٥٥) انظر الصيغ المختلفة لهاتين الآيتين في تفسير الطبري للآية ٥٢ من سورة «الحج»، ود. هيكل / حياة محمد / ١٦٤، ١٦٥، وشمس الدين الفاسي / آيات سماوية في الرد على كتاب آيات شيطانية / ٦٢.

(٥٦) يمكن للقارئ الرجوع إلى كتابيَّ: «مصدر القرآن ــ دراسة في الإعجاز النفسي (ص / ٢٢ وما بعدها)، و«ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية» (ص /٢٣٠ وما بعدها)، حيث يجد مناقشة مفصلة لهذه القضية.

الاستشراقية على مبدأ التوحيد! هل نفهم من ذلك أن بوهل وزملاءه من المستشرقين موحدون وأن توحيدهم أرقى من توحيد محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنهم إمَّا ملاحدة فليسوا مؤمنين فضلاً عن أن يكونوا موحدين ، وإما يهود ونصارى ، وفي اليهودية أشياء كثيرة من الوثنية والتجديف على الخالق عز وجل ، والنصرانية أساسها التثليث فلا صلة بينها وبين التوحيد إلا على التعسف المجافي للمنطق السليم. وإن الإسلام هو أرقى ما يوجد على الأرض من أديان ، وبالذات في عقيدة التوحيد التي هي فيه صفية نقية لا تمازجها شائبة مهما تفهت . وما يقوله المستشرقون ليس له من غاية إلا الإساءة إلى الرسول ودينه ، والإجلاب على المسلمين بخيل تشكيكهم ورَجِل تلفيقهم.

ويمضي بوهل في بذر تشكيكاته فيدَّعي أن أهل يثرب عندما اتفقوا مع النبي عليه الصلاة والسلام على الهجرة إليهم لم يكونوا يريدون نبيًا يوحى إليه(٥٧) بقدر ما كانوا يريدون زعيمًا سياسيًا لتسوية أوضاعهم السياسية التي خطمتها الصراعات القبلية التي بلغت ذروتها في يوم بُعاث(٥٨). وهذا كله خبط لا معنى له، فإن الاتفاق الذي تم بينهم وبينه عليه السلام قائم على أساس ديني لا سياسي. * ثم إنهم لم يكن ينقصهم ذلك الزعيم السياسي متمثلاً في عبد الله بن أُبَيّ، الذي كانوا على وشك تتويجه عشية اتفاقهم مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه(٥٩) لولا أن الأمور قد

(٥٧) في ترجمة د. راشد البراوي خطأ هنا، إذ بدلاً من «يُوحَى إليه» نجد «يوجَّه إليه». ويبدو أنه خطأ مطبعي (١/٩٤٦/٢).

(٥٨) ٢/٣٦٩.

(٥٩) ويسلم المستشرقون أنفسهم بهذا. انظر الموسوعة ٢/٤١٠ / مادة «المنافقون».
* وقد عُرِضَ عليه (عليه الصلاة والسلام) الملك فأبى ، وعَرَضَتْ عليه قريش الزعامة فأبى والمال فأبى؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ما هو إلا رسول من عند الله وهذه أشرف من أى زعامة، وأغلى من أى ملك، وأنفس من أى مال أو سلطان .

أخذت مجرًى آخر بعد هجرته إليهم. كذلك فإن وضع الرسول عليه السلام في ذلك الوقت لم يكن يوحي بأنه زعيم سياسي. ومن أين له ذلك وقد كان فرداً ضعيفًا مضطهداً هو وأتباعه أشد الاضطهاد في مكة، ولم يكن قد نزل من القرآن شيء يتصل بالسياسة أو الحرب أو الإرادة؟ وفضلاً عن ذلك فالاتفاق الذي تم بينه عليه السلام وبين أهل يثرب إنما نصَّ على حمايتهم هم له لا على زعامته السياسية لهم(٦٠).

ويعزو المؤلف عجز اليهود في المدينة عن الرد على اتهام القرآن لهم بإخفاء ما في كتبهم وتحريفه إلى أنهم حتى لو أظهروا هذه الكتب فلم يكن الرسول عليه السلام ولا المسلمون ليقدروا على قراءتها(٦١). ولكن هل كان هذا الاعتبار، لو صَحَّ، ليمنع اليهود من أن يقولوا للرسول إن اتهامك هذا اتهام باطل؟ ولقد فات بوهل أن من اليهود وأحبارهم من أسلم، وكانوا بطبيعة الحال يعرفون اللغة التي كُتِبت بها هذه الكتب، فكان بمستطاع اليهود أن يستشهدوا بهم في قراءة ما يريدون قراءته على الرسول منها. بل إن من المسلمين من كان يعرف اللسان العبري.

ويزعم بوهل أن الرسول عليه السلام عندما خابت آماله في اليهود أعطى دينه السمة القومية، وذلك بقبول طقوس العبادة الوثنية في الإسلام والاهتمام بمكة والكعبة(٦٢).

لقد سبق أن رددت على الادعاء الخاص بالكعبة والطقوس الوثنية، فلا داعي

---

(٦٠) انظر في اتفاق العقبة الأولى والثانية وطبيعته الدينية وقيامه على حماية أهل يثرب للنبي عليه السلام «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير / ١٢٥، وسيرة ابن هشام / ١/٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٣، و«جوامع السيرة» لابن حزم / ٧٢ ـ ٧٤.

(٦١) ٢/٣٩٨.

(٦٢) نفس الصفحة والنهر.

من ثمَّ لإعادة القول فيه هنا. أما دعوى السمة القومية * فإن القرآن في نصوصه المكية والمدنية يربط الإسلام والرسول عليه السلام بالأنبياء السابقين وأديانهم. ومن شواهد ذلك في الوحي المكي قوله تعالى شأنه: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾(٦٣) ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ** (أيها الرسل) **أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾(٦٤)، ﴿ **أُولَٰئِكَ** (أي إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط...) **الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ** (يا رسول الله) **اقْتَدِهْ** ﴾(٦٥). ومن شواهده في الوحي المدني: ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**

* ولا نجد في التاريخ كله من يوم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا شيئاً حارب العصبية والقوميات بمثل ما جاء به خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل الدعوة إليها عصبية جاهلية . تحبط العمل وتغضب الرب جل وعلا، وقد تضع الإنسان في دائرة الخطر إن لم يراجع إسلامه قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ... الحديث»، وقال صلى الله عليه وسلم « من دعا الى عصبية أو قاتل على عصبية مات ميتة جاهلية »، وقال عنها أيضاً صلى الله عليه وسلم .. (دعوها فإنها منتنة)، وقال صلى الله عليه وسلم (أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم) عند تداعي الأوس والخزرج بالمدينة الى التفاخر بالأنساب . وقال الله تعالى : ﴿ إذجعل قلوب الذين كفروا الحمية حمية الجاهلية ﴾.

وقد وصف صلى الله عليه وسلم اعمال الجاهلية أنها من جثى جهنم (من دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم).

(٦٣) الشورى: ١٣.

(٦٤) الأنبياء: ٩٢.

(٦٥) الأنعام: ٩٠.

وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾(٦٦)، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾(٦٧)، ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾(٦٨).

فأين القومية في هذا؟ كما أن عالمية الدعوة منصوص عليها في مكة والمدينة معًا، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(٦٩)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾(٧٠)، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾(٧١). حتى الجن أُرْسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾(٧٢). والإسلام فوق ذلك لم يجعل للعرب أي فضل على من سواهم من

(٦٦) النساء: ١٦٣، ١٦٤.

(٦٧) البقرة: ١٣٦.

(٦٨) آل عمران: ٨٤.

(٦٩) سبأ: ٢٨.

(٧٠) الأنبياء: ١٠٧.

(٧١) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩.

(٧٢) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.

الأمم، بل جعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط، لا امتياز لعربي على أعجمي ولا لهذا على ذاك إلا بالتقوى والعمل الصالح. فمن أين للمؤلف بدعوى السمة القومية إذن؟

ويرتب بوهل على تحول القبلة إلى الكعبة نتائج ليس لها وجود إلا في خياله، فهو يقول إن جعل مكة مركزًا للدين الجديد قد فرض على الرسول صلى الله عليه وسلم واجبات جديدة، إذ إن فرض الحج على المسلمين وهم غير قادرين على تأديته لم يكن له من معنى إلا أن يستولوا على مكة والمسجد الحرام بقوة السلاح. وهذا، بالإضافة إلى رغبته عليه السلام في تسوية الحساب مع القرشيين، قد أدى إلى فرض الجهاد وجعله عليه السلام يعمل على إشعال نار الحرب. وهو يدعي أن الرسول قد حاول ذلك بكل سبيل وعناد، بيد أن الأنصار كانوا قد ارتبطوا معه في البداية بأن يحموه فقط إذا هوجم، وقريش لم تهاجمه، وذلك لعدم رغبتها في القتال(٧٣). كما يزعم أن قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾(٧٤) وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾(٧٥) يدلان على مدى

(٧٣) أخطأ الدكتور راشد البراوي في ترجمة الكلام هنا، إذ نقل إلى العربية النص التالي: «But the anything but warlike merchants of Mecca were not inclined to oblige him by beginning» هكذا: «ولكن تجار مكة الشجعان لم يكونوا ميّالين إلى إرضائهم بأن يبدأوا الحرب أنفسهم» (١/٩٥٢/٢)، واصفًا تجار مكة بأنهم شجعان، على حين يقول المؤلف إنهم أي شيء إلا أن يكونوا ميالين إلى القتال. كما أن الضمير في «إرضائهم» هو في النص الإنجليزي ضمير مفرد يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن د. البراوي جعله ضمير جمع.

(٧٤) البقرة: ٢١٦.

(٧٥) الحج: ٣٨، ٣٩.

المقاومة التي كان يبديها المهاجرون ضد قتال أقاربهم، ويعنفانهم تعنيفًا شديدًا على ذلك. ثم يمضي في مزاعمه فيقول إن المسلمين عندما وصلوا بدرًا ووجدوا جيش المشركين بدل قافلة التجارة قد ملأهم الرعب(٧٦).

وواضح ما في كلام بوهل من تناقض، فهو يتهم الرسول عليه السلام بأنه كان متعطشًا إلى محاربة قريش بكل عناد، وذلك لكي يستولى على مكة بقوة السلاح إلخ، وفي نفس الوقت يقول إن المسلمين قد فوجئوا بجيش المشركين في بدر بدل القافلة، أي أن قريشًا هي السبب في الحرب لا الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم لو كانت المسألة مسألة تسوية حسابات مع قريش فلم عفا الرسول صلى عليه وسلم عنهم يوم الفتح قائلاً لهم في نبل ليس له نظير: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء» وفيهم من كانوا وراء قتل عمه وأخيه في الرضاع حمزة رضي الله عنه وبقروا بطنه وأخرجوا أحشاءه وجدعوا أنفه وأذنيه ؟ *

أما الرعب الذي يدعي بوهل أنه ملأ قلوب المسلمين حين رأوا الجيش بدل القافلة فلا أدري من أي وادٍ من أودية الوهم أتى به. وموقف المسلمين حينذاك والكلام الذي قالوه يعبرون به عن كامل استعدادهم للذهاب إلى أبعد مدى والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل الله والإسلام، كل ذلك قد أوردته كتب التاريخ والسيرة بمنتهى الوضوح، فلم الكذب إذن؟ ثم متى انتصر المرتعبون على أعدائهم الذين يبلغون ثلاثة أضعافهم عددًا والذين يتفوقون عليهم في العُدّة تفوقًا رهيبًا هذا الانتصار الباهر الذي يحاول المستشرق الحاقد أن يهون من شأنه فيسمى المعركة كلها « insignificant fracas : مشاجرة تافهة »، محاولاً بذلك (وهيهات!) أن

(٧٦) ٢/٣٩٩.

* أرأيت فى التاريخ كله سعة صدر وسماحة قلب وعظيم عفو مثل ما فعله هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ؟

يطمس قيمتها التاريخية العظيمة التي ندر أن يكون لمعركة أخرى مثلها؟ لكأن نصرى سلهب (الكاتب النصراني الذي يؤمن مع ذلك بعظمة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوّته وجلال الكتاب الذي نزل عليه) كان يردّ على بوهل حين كتب قائلاً إن « المعارك التي قادها محمد وخاضها على رأس المؤمنين لم تكن معارك كبرى بالمعنى التقليدي للكلمة. لم يكن عدد المشركين فيها كبيراً. لم يكن هنالك مئات ألوف تحارب مئات ألوف، بل لم يكن هنالك عشرات ألوف تحارب عشرات ألوف. كان هنالك مئات، وأحياناً آلاف. ولكن تلك المعارك كانت كبرى بمعنى للكلمة آخر. كانت كبرى بأسبابها ونتائجها. كانت مصيرية وتاريخية، لأنها أثرت في مصير الإنسانية وأسهمت في صنع التاريخ. وكانت بالإضافة إلى ذلك في عداد المعارك القليلة الحاسمة التي خاضها البشر من أجل الله. ومن هنا من هذه الزاوية لا نظن أن التاريخ عرف معارك أكبر منها، ولربما لم يعرف إلا معارك قليلة جداً بحجمها»(٧٧). وعن غزوة بدر بالذات يقول: «تلك الغزوة... كانت من المعارك الكبرى في التاريخ، ولئن تكن صغرى المعارك بالنسبة إلى عدد المشاركين فيها. كانت كبرى بأسبابها ونتائجها. فلو خسرها المسلمون وقُتل فيها محمد، لا سمح الله، لكان الإسلام مات في مهده، ولكانت الإنسانية مُنِيَتْ بخسارة لا يعرف مداها وأهميتها إلا المطلعون على مدى وأهمية الإسلام في الحضارة، حضارة الإنسانية جمعاء، في حقول الدين والروح والفكر والعلم والفن وسواها من الحقول... ولو لجأنا بالمخيلة إلى محو التراث

(٧٧) نصرى سلهب/ في خطا محمد/ ١٧١.

الإسلامي من العالم... لكنا عدنا بالعالم خمسمائة سنة إلى الوراء»(٧٨).

أما ما ادعاه بوهل من أن الأنصار لم يكونوا متحمسين لخوض معركة بدر وأن المهاجرين لم يكونوا يريدون قتال أقربائهم من قريش فهو كلام لا يساوي شيئًا في ميدان البحث العلمي، إذ هو يعارض وقائع التاريخ، التي تقول إن المسلمين جميعًا، أنصارهم ومهاجريهم، قد أبدوا حينذاك من الحماسة والاستعداد للتضحية ما لا مجال بعده للزيادة. كما أبلوا في المعركة نفسها من ضروب الشجاعة والاستبسال ما لا نظير له، وإلا فكيف تم لهم ذلك النصر العظيم؟ وإن الآيتين اللتين أشار إليهما بوهل في هذا السياق لتدلان دلالة ساطعة على أنه يتقول ويُنطق النصوص بغير ما فيها، إذ ليس هناك أي تعنيف فيهما للمهاجرين أو الأنصار، بل تشير أولاهما إلى أن الحرب بطبيعتها كريهة للنفس البشرية، وهو ما لا يماري فيه أحد. ومع ذلك فإن الصحابة قد أثبتوا أنهم طراز آخر من البشر لا يتكرر، إذ إن إيمانهم العظيم بالله ولقائه وجنته قد أقدرهم على تخطي حاجز الكراهية هذا بمنتهى السهولة، فكان الواحد منهم يواجه الموت كأنه يشم النسيم* . أما ثانيتهما فتعلن انتهاء عهد الموادعة والصبر على أذى المشركين وبدء عهد الرد على العدوان بمثله. ومن هذا يتبين لنا أن بوهل يكذب على الله ويدعي على القرآن ما ليس فيه.

---

(٧٨) السابق/ ١٧٢، ١٧٣. وفي بحث هذه الغزوة وأهدافها وسير القتال وأسباب انتصار المسلمين فيها من الناحية المعنوية والتخطيطية والتعبوية والدروس المستفادة منها والقضايا الحربية المتعلقة بها انظر اللواء الركن محمود شيت خطاب/ الرسول القائد/٩٩ ـ ١٢٦، ومحمد فرج/ المدرسة العسكرية الإسلامية/٤٨٧ ـ ٤٩٩ وفي مواضع أخرى متفرقة.

* حتى أن من إرهاصات النبوة أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر بما سيقع آخر الزمان من تداعى الامم وتكالبها على أمة الإسلام وهم يومئذ كثير، ولكنه كثير كغثاء السيل وبين السبب وهو قوله صلى الله عليه وسلم :(ينزعن الله المهابة من قلوب عدوكم ويضع فى قلوبكم الوهن ... الحديث).

وكما سوّل لهذا المستشرق حقده وغيظه أن يُهَوِّن من شأن معركة بدر، فكذلك فعل مع غزوة «الخندق»، إذ وصفها بأنها « comedy : مسرحية هزلية»: فالخندق تافه، فضلا عن أنه لم تقع معركة(٧٩). وعجيب أن يترك باحث علمي لأحقاده وضغائن قلبه أن تغشّى على بصره وبصيرته إلى هذا الحد، إذ أين وجه الهزل في ذلك؟ لقد كانت غزوة الخندق معركة أراد بها الكفار محو الإسلام من الوجود. وكان عددهم عشرة آلاف محارب، وهو ما يبلغ ضعف محاربي المسلمين أكثر من ثلاث مرات. ولم يكن المسلمون يواجهون قريشًا وحدها بل قبائل شتى، ولذلك سميت الموقعة بـ «غزوة الأحزاب». كما أن اليهود (الذين يتباكى عليهم هذا الحقود) قد تنكروا في هذه الظروف للاتفاقية التي كانت بينهم وبين المسلمين(٨٠) ومدوا أيديهم إلى أعدائهم وهَمّوا بأن يطعنوهم بخنجر الغدر السام في ظهورهم لولا لطف الله، الذي ساق إلى الإسلام في ذلك الوقت رجلاً داهية أريبًا أوقع بين اليهود والأحزاب وأفشل تلك المكيدة الشيطانية. وكأن هذا كله لا يكفي، فنرى المنافقين يتسللون من صفوف

(٧٩) ٢/٤٠٠. ولدراسة هذه الغزوة من الناحية العسكرية، انظر اللواء الركن محمود شيت خطاب/ الرسول القائد، ومحمد فرج/ المدرسة العسكرية الإسلامية/٥٤٤، ٥٤٥، ٥٥١، ٦١٢ ـ ٦١٣.

(٨٠) في المادة الخاصة ببني قريظة (٢/٢٧٢) يشكك المستشرق ڤاكا في الروايات التي تذكر خيانتهم، ويستبعد أن تكون هناك اتفاقية بينهم وبين المسلمين على التناصر في الحرب. وشبهته في ذلك أنه لا يُعقل أن تكون هناك اتفاقية خاصة بهم غير اتفاقية «الصحيفة»، وهذه الاتفاقية اتفاقية عامة. وهذا كذب، فنصوص الاتفاقية موجودة في مصادر السيرة والتاريخ كما سبق بيانه، وفيها النص على التناصر في الحرب بين الفريقين. وما يقوله هذا المستشرق لا صلة بينه وبين البحث العلمي، الذي ينبغي أن يخضع لحقائق التاريخ لا أن ينكرها ويشكك فيها بدافع الأهواء والنزوات. إن العلم لا يعرف هذا التعصب الاستشراقي ضد كل ما هو إسلامي.

الجيش الإسلامي لائذين ببيوتهم مدّعين في صفاقة أنها عورة (أي يخافون أن يهجم عليها العدو)، وما هي بعورة. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ كما قال القرآن الكريم. أي أن كل الظروف قد تحالفت على المسلمين فأصبحوا بين فكي كماشة رهيبة لا ترحم.

والذي يقرأ الآيات ٩ ـ ٢٦ من سورة «الأحزاب» يستطيع أن يدرك جوّ الفزع الذي كان يسود المدينة في ظل هذه الظروف العصيبة. أما كتب السيرة والغزوات والتاريخ فإنها تحفل بالتفاصيل التي لا يوردها القرآن (مكتفيًا بالخطوط العامة وحسب) والتي تجعل الإنسان يعيش الجو بنفسه كأنه واحد من المسلمين الأولين ويحس بالفزع من تكالب الأحزاب المتنمرين واليهود الغادرين في حشود حاشدة على سكان المدينة، هذا الفزع الذي يلخّصه أحد الصحابة بقوله إن الواحد منهم لم يكن يأمن على نفسه أن يذهب وحده لقضاء حاجته. ومع ذلك كله يجيء هذا المستشرق السمج ويقول إن غزوة الأحزاب كانت مسرحية هزلية!

ويتابع المستشرق الموتور ما حدث بعد غزوة الخندق قائلاً إن الرسول عليه السلام قد استدار فحاصر بني قريظة، وحاول الأوس استرحامه، ولكنه في هذه المرة كان شديداً لا يلين، وصمم على تنفيذ ما كان قد هدد به في الآية الثالثة من سورة «الحشر» فأصدر حكمًا بقتلهم. وقد رفض بوهل ما ذكره التاريخ من أن سعد بن معاذ هو الذي أصدر هذا الحكم، قائلاً إن هناك أدلة متعددة على أن النبي صلى الله عليه وسلم هو نفسه الذي اتخذ القرار(٨١).

أما أين تلك الأدلة فكعادة كتّاب الموسوعة في كثير من الحالات لا يكلف بوهل نفسه أن يجيب. ذلك أنهم يرون أنهم أكبر من أن يطالبهم أحد ببرهان. ولو كان

(٨١) ٢/٤٠٠، و١/٤٠١.

لرسول صلى الله عليه وسلم هو صاحب ذلك الحكم فماذا في ذلك حتى يحاول لمسلمون أن يلقوا بمسؤوليته على سعد بن معاذ كما يزعم الكاتب؟ وماذا يقول بوهل ي هذا الشعر لحسان وقد أشار إليه، وهو وزملاؤه يعتمدون على الأشعار أكثر مما يعتمدون على المرويات التاريخية:

بـــأنت الذي يـــا سعـــد أبْتَ بمشهـــد كـــريم وأثـــواب المكـــارم والحمـــد

بحكمـك في حيَّيْ قريظـــة بالـــذي قضى الله فيهم ما قضيت على عَمْد(٨٢)؟

أما الآية الثالثة من سورة «الحشر» فلست أفهم ما العلاقة بينها وبين عقاب بني قريظة. ذلك أنها نزلت مع معظم السورة في جلاء بني النضير عن المدينة قبل ذلك بسنوات. وهذا هو نصها: ﴿ **وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النارِ** ﴿٣﴾ ﴾، وليس فيها، كما يرى القارئ، أي شيء عن بني قريظة بل ولا تحتوي أي تهديد بالمرة.

واللافت للنظر فيما كتب بوهل عن هذه القضية أنه لم يشر قط إلى خيانة بني قريظة لحلفائهم المسلمين، الذين كانت بينهم وبين اليهود معاهدة على التناصر والوقوف يداً واحدة في وجه أي عدو يهاجم المدينة(٨٣). لقد كانوا جزءاً من الأمة التي كانت تلك المدينة وطناً لها، ولكنهم لم يكتفوا بالتقاعس عن الدفاع عن البلد بل زادوا فاستجابوا لاتصالات الأعداء بهم وانقلبوا على المسلمين فأصبحوا خنجراً سامًّا مشهراً في ظهورهم، والمسلمون من جانبهم لا يستطيعون شيئًا غير انتظار انغراسه في لحمهم وعظامهم، لولا أن لطف الله بهم فساق إلى الإسلام في هذه اللحظات

(٨٢) ديوان حسان/ تحقيق د. سيد حنفي حسنين/١١٤. وقد أورده ابن هشام في سيرته/ ٢/٢٧٠.

(٨٣) وهي معاهدة الصحيفة. انظر نصها في ابن هشام/١/٥٠١ ـ ٥٠٤، ومختصر سيرة ابن كثير/ اختصار محمد على قطب/ ١٧٨ ـ ١٨٠.

الرهيبة رجلاً داهية (هو نعيم بن مسعود الأشجعي)، استطاع بتوفيق الله وتخطيط رسوله أن يفسد هذا التحالف الإبليسي بين اليهود والأحزاب، فما الذي كان بوهل يريده من الرسول والمسلمين بعد تلك الخيانة العظمى؟ لقد كان حكم سعد بن معاذ أخف كثيراً من الحكم الذي نص عليه العهد القديم عند انتصار اليهود على أمة من الأمم المجاورة لهم، إذ أنه لم يُقْتَل من بني قريظة إلا المحاربون فقط، على حين توجب الشريعة اليهودية استئصال كل فرد من الأعداء المهزومين في مثل هذه الحالة(٨٤). ودعك من الخيانة العظمى التي اجترحها بنو قريظة قبل ذلك(٨٥).

---

(٨٤) تثنية/ ١٦/٢٠. وانظر كتابي «مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي ٤٥ – ٤٦.

(٨٥) انظر قصة غزوة الخندق وبني قريظة والخيانة التي اجترحها هؤلاء والعقاب الذي نزل بهم عن استحقاق في «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير/ ١٨٤ ـ ١٨٩، و«المغازي النبوية» لابن شهاب الزهري/ ٧٩ ـ ٨٣، وسيرة ابن هشام/٢/٢١٤ ـ ٢٧٣، و«المغازي» للواقدي/٢/٤٤٠ ـ ٥٤١، و«جوامع السيرة» لابن حزم/ ١٨٥ ـ ١٩٨، و«الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم» لابن كثير/ تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين متو/ ١٦٣ ـ ١٧٦، و«حياة محمد» للدكتور هيكل/ ٣٢٧ ـ ٣٤٢ و«السياسة الإسلامية في عهد النبوة» لعبد المتعال الصعيدي/ ١١٢ ـ ١١٣، ٩٧ ـ ١٠٣، و«سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ صور مقتبسة من القرآن الكريم» لمحمد عزة دروزة/٢/١٩٨ ـ ٢٠٢، ٣٤٠ ـ ٣٤٦، و«قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم» للدكتور محمد جمال الدين سرور/ ١١١ ـ ١١٧، ١٤٦ ـ ١٤٧، و«تاريخ العرب القديم وعصر الرسول» للدكتور نبيه عاقل/ ٤٩٠ ـ ٤٩٧، و«غزوة الأحزاب» للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، و«غزوة بني قريظة» لمحمد أحمد باشميل، و«نظرة جديدة في سيرة رسول الله» لكونستانس جيورجيو (ترجمة د. محمد التونجي)/ ٢٨٧ ـ ٣٠٣، و H. M. Balyuzi, Muhammad and the Course of Islam, PP. 93 - 101; Ziauddin Kirmani, The Last Messenger and a Last

وقد نبّه المستشرق مارتن لنجز إلى أن الذي عفا عنهم الرسول من المشركين في بدر قد عادوا إلى محاربة المسلمين في أُحُد والخندق، وأن بني النضير لو كانوا قُتِلوا بدلاً من العفو عنهم لقلت جيوش الأحزاب إلى النصف ولكان من الممكن ألا ينقلب بنو قريظة على المسلمين ويغدروا بهم، إذ إن بني النضير كانوا وراء تجييش الأحزاب الذين اشتركوا هم أيضاً معهم، ووراء خيانة بني قريظة(٨٦).

لقد قال بوهل عن حرب الخندق إن هذه المسرحية الهزلية قد انقلبت مأساة دامية بالنسبة لبني قريظة. فليكن، فعلى نفسها جنت براقش، فقد كان بنو قريظة يريدونها مأساة تستأصل شأفة الإسلام والمسلمين، فحق عليهم غدرهم، وارتد خنجر خيانتهم إلى رقابهم، وجرّعهم الله من ذات الكأس التي كانوا قد أعدوها للمسلمين!

ويشكك بوهل في أن يكون الرسول عليه السلام قد بعث برسائل إلى الملوك المجاورين لدولته يدعوهم فيها إلى الإسلام(٨٧). وشبهته في ذلك أنه من المستبعد أن

Message, PP. 151 - 156, 169 - 170; Safdar Husain, Who was= Muhammad' PP. 65 - 68; Hafiz Ghulam Sarwar, Muhammad the Holy Prophet, PP. 234 - 28, and Martin Lings, Muhammad, PP. 220 - 233.

(٨٦) انظر كتابه: « Muhammad ». / ٢٣١

(٨٧) يتابع د. عون الشريف قاسم بوهل والمستشرقين الذين يشككون في الرسائل التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم بها إلى الملوك المجاورين لجزيرة العرب، ويردد شبهتهم القائلة بأنه في ذلك الوقت لم تكن لديه من القوة ما يساعده على اتخاذ هذه الخطوة. ومع ذلك فهو يقرّ بعالمية الإسلام (انظر كتابه «دبلوماسية محمد ـ دراسة لنشأة الدولة الإسلامية في ضوء رسائل النبي ومعاهداته»/ ٥٧ ـ ٩٢). ومثل د. عون الشريف في ذلك د. نبيه عاقل (انظر «تاريخ العرب القديم وعصر الرسول»/ ٥٢٧ ـ ٥٤٨). كذلك فإن هـ. م. بليوزي يبدو بوجه عام متشككًا في هذه الرسائل (انظر «Muhammad and the Course of Islam, PP. 114 - 117»).

يتعلق الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو السياسي الواقعي الحكيم، بفكرة مغرقة في الخيال والوهم مثل إدخال هرقل أو كسرى في الإسلام، وبخاصة في الوقت الذي كان يعد فيه لفتح مكة. فضلاً عن أنه، كما يقول، لم يكن يملك القوة اللازمة لإجبارهما على اعتناق الإسلام ولا المغريات التي تجعلهما يفعلان ذلك من تلقاء نفسيهما. كما يقول إنه قد ثبت عدم صحة الرسالة التي عُثِر عليها وقيل إنها هي رسالته صلى الله عليه وسلم للمقوقس عظيم القبط. وحتى الآيات التي تدل على عالمية الإسلام يزعم أنها محدودة بسياقها، بل إنه يستبعد تماماً أن يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد فكر في أن يكون الإسلام ديناً عالمياً(٨٨).

والحق أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الملوك إلى الإسلام هي أمر عادي جداً. وهل هناك أحد أكبر من الإسلام؟ لقد كان النبي عليه السلام مؤيَّداً من السماء، فَمَنْ كسرى وقيصر والمقوقس إذن؟ ولقد رأينا الرسول عليه السلام يرسل إلى حدوده مع دولة الروم قوات عسكرية مستعدة للاشتباك معها إذا دعت الظروف(٨٩)، فكيف يقال إن مجرد دعوة هرقل وكسرى إلى الإسلام (والدعوة أخف

(٨٨) ٢/٤٠١، و١/٤٠٢.

(٨٩) ومن ذلك جيش مؤتة، الذي يدعي د. عون الشريف قاسم أن البيزنطيين قد أبادوه عن آخره (دبلوماسية محمد/٧٠). وهذا غير صحيح بالمرة، إذ لم تذكر المصادر القديمة إلا عدداً جد محدود من الشهداء لا يكاد يتجاوز أصابع اليدين (انظر «مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعروة بن الزبير/ ٢٠٦، وسيرة ابن هشام /٢/٣٨٨، ٣٨٩، ومغازي الواقدي/ ٢/٧٦٩). وماذا يكون هذا العدد في جنب ثلاثة آلاف، وهو عدد المحاربين المسلمين في تلك الغزوة في مقابل مائة ألف للروم أو مائتي ألف؟ (انظر مغازي عروة/ ٢/ ٧٥٦، ٧٦٠). ولقد ذكرت هذه المصادر أيضًا أن خالد بن الوليد قد عاد بالجيش إلى المدينة عودة مشرفة بعد سقوط قادته الثلاثة كما هو معروف. فما معنى الزعم بأن الجيش قد أُبيد عن آخره؟ ومن أين أتى المؤلف بذلك؟

من الحرب كثيراً جداً) هي فكرة مغرقة في الوهم؟

وعجيبةٌ تركيبة ذلك المستشرق الذهنية والنفسية. إنه يظن أن دخول أي شخص في الإسلام لا يمكن أن يكون نتيجة للتفكر في هذا الدين وشخصية الرسول الذي أتى به، بل لا بد من إجباره بالقوة أو إغرائه بالمال. وما دام محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك في ذلك الوقت هذا أو تلك، فلا معنى لأن يدعو أولئك الملوك إلى الدخول في دينه. إن المسألة عند بوهل ليست مسألة حق أو باطل بل مسألة قوة باطشة أو رشوة مالية! وهذا هو المنطق الأوربي.

وإننا لنسأله: وهل كان أبو بكر وعمر يملكان أكثر مما كان يملك الرسول من قوة عسكرية أو إغراءات مادية؟ فلماذا أقدما، لا على دعوة كسرى وقيصر والمقوقس إلى الإسلام، بل على فتح بلادهم ذاتها وضمها إلى الدولة الإسلامية؟ هذا، وهما بَعْدُ ليسا إلا تابعين من أتباعه صلى الله عليه وسلم، ولم يكونا متصلين بالسماء يتلقيان منها الوحي والمدد الإلهي. أليس عند بوهل منطق؟

وعلى أية حال، فالرسول عليه السلام قد أراد تبليغ هؤلاء الملوك دعوة الإسلام، وترك لهم قرار القبول أو الرفض، فلا إكراه ولا إغراء إذن. فما وجه الوهم في هذا؟

أما احتجاج بوهل بأن هؤلاء الملوك لم يكن بمستطاعهم قراءة القرآن مثلما كان الرسول عاجزاً عن قراءة الكتاب المقدس وفهمه، فهو احتجاج مضحك، إذ هناك شيء اسمه ترجمة وتراجمة، و إلا فكيف كان هرقل وكسرى مثلاً يتعاملان مع الأمراء العرب التابعين لهما؟ ثم إنه ليس من اللازم أن يطّلعا على ترجمة القرآن كله إذا رغبا في معرفة الإسلام، بل يكفي أن تُتَرْجَم لهما عقائده ومبادئه الأخلاقية مثلما فعل جعفر بن أبي طالب مع النجاشي. وإني لا أظن أن كسرى وقيصر كانا في ذلك الوقت يجهلان الإسلام ونبيه وأنه يدعو إلى التوحيد مثلاً (في مقابل تثليث النصارى وثنوية الفرس) وإلى الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار، وينهى عن شرب الخمر

والربا وأكل الميتة والزنا.

ثم أليس مضحكًا أن يشير بوهل إلى الحاجز اللغوي الذي كان يفصل بين النبي صلى الله عليه وسلم والكتاب المقدس عند أهل الكتاب، وهو ورفاقه يتهمونه عليه السلام بمعرفة اليهودية والنصرانية والأخذ منهما ومن كتبهما؟

وقد رأيناه يشكّك في صحة الرسالة التي عُثِر عليها وقالوا إنها رسالته صلى الله عليه وسلم للمقوقس. وكنا نحب لو أنه أورد الأسباب التي وراء هذا التشكيك، لكنه لم يفعل. كما كنا نحب أيضًا أن يوضح للقارئ أن هذه الرسالة قد وُجدت في أحد الأديرة المصرية في القرن الماضي في عهد الخديوي سعيد، وأن الذي عثر عليها هو عالم فرنسي(٩٠). أي أنه ليست للمسلمين أية صلة بالعثور على هذه الرسالة، فلا وجه لتنطع هذا المستشرق في الإقرار بصحتها. كما أن أحد المستشرقين، وهو بيلن (Belin) (٩١) قد انتهى بعد فحص هذه الرسالة إلى أنها صحيحة. ويؤكد صحتها أيضًا المستشرق بادجر(Badger)(٩٢)

كذلك قد أكد جيبون، المؤرخ الإنجليزي الشهير، بَعْث النبي صلى الله عليه وسلم برسائل إلى ملوك عصره، ووقف بالذات عند رسالته إلى هرقل، الذي ذكر استضافته، إثر عودته من حربه مع الفُرْس، للرسول الذي بعث به النبي عليه السلام

(٩٠) انظر جورجي زيدان/ تاريخ التمدن الإسلامي/ مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس/ ١/ ٦١، ٦٢، وحفني ناصف/ تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية/ ٦٤، ومحمد حميد الله/ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة/ ٢٤، ود. عون الشريف قاسم/ دبلوماسية محمد صلى الله عليه وسلم/ ٨١، ٨٢.

(٩١) وذلك في مقال له في مجلة «Islamic Review»/ مجلد عام ١٨٥٤م/ ٤٨٢ ـ ٤٩٨.

(٩٢) نفس المجلة/ مجلد عام ١٩١٧م/ ٤٩ ـ ٥٣.

إليه يدعوه إلى الإسلام، ساخرًا من الغرور الذي سول للكتاب البيزنطيين أن يدّعوا أن النبي قد قام بزيارة هرقل بنفسه وأن العاهل البيزنطي قد أكرم وفادته وأعطاه جزءًا من الأراضي الشامية(٩٣). ونزيد على ذلك أنه قد عُثِر أيضًا على رسالتي النبي صلى الله عليه وسلم للمنذر بن ساوي ونجاشي الحبشة. وقد بحثهما محمد حميد الله وأثبت أنهما صحيحتان(٩٤). وقد نُشرت صور هذه الرسائل الثلاث في المجلات والكتب المختلفة(٩٥).

وإذا كان بوهل وزملاء مهنته يشككون في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس، فكيف يفسرون إهداءه مارية القبطية وأختها سيرين إلى نبينا صلى الله عليه وسلم؟ أم تراهم سيشككون أيضًا في وجودهما ومجيئهما إلى المدينة أصلاً، وبالتالي في زواج الرسول عليه السلام من الأولى وإنجابه منها إبراهيم رضي الله عنه وزواج حسان من الثانية وإنجابه منها ابنه عبد الرحمن؟ ولقد ذكر أبو صالح الأرمني، وهو مؤلف قبطي عاش في القرن السادس الهجري، واقعة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثًا إلى المقوقس يدعوه إلى الإسلام وأن المقوقس أهداه بعض الجواري وفيهن مارية وسيرين(٩٦).

(93) Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, Vol . Vol. II, P 242.

(٩٤) وذلك في مقالين له في «مجلة عثمانية» الناطقة بالهندوستانية/ يونيو ١٩٣٦م، ومجلة «Islamic Culture»/ حيدر آباد/ أكتوبر ١٩٣٩م/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤، على الترتيب (انظر كتابه «مجموعة الوثائق السياسية» / ٢٤).

(٩٥) انظر صورًا لها ولغيرها من الرسائل المشابهة في «مجموعة الوثائق السياسية» / ١٠٢، ١٠٨، ١٣٧، ١٤١، ١٤٧، ١٦٢، و«Encyclopaedia of Seerah» لأفضل الرحمن/ ١/ الصفحات التالية لصفحة ٨٤٨.

(٩٦) انظر د. عون الشريف قاسم / دبلوماسية محمد / ٨٠.

إن المسلمين لو كانوا هم الذين زيفوا هذه الرسائل بعد وفاة نبيهم كما يريد المستشرقون منا أن نعتقد لكانوا قد جعلوها مملوءة بالتهديد والوعيد لمن أُرسلت إليهم، تمجيداً منهم للنبي والإسلام. لكننا بالعكس لا نرى فيها إلا مجرد عرض للإسلام في عبارة هادئة موجزة، اعتماداً بطبيعة الحال على أن حامليها سوف يقومون بالشرح والتفصيل اللازمين. كذلك فإن ردود هؤلاء الملوك كانت كلها تقريباً سلبية، بل إن كسرى قد مزق رسالته وبعث إلى عامله على اليمن أن يأتيه بمحمد، الذي تجرأ وكتب اسمه في الرسالة قبل اسمه. ثم إن أحد حملة هذه الرسائل قد قُتِل في الطريق. ترى ما السبب الذي حدا بالكتاب المسلمين، لو كانوا هم مزوري هذه الرسائل، أن يجعلوها وردودها على هذا النحو(٩٧)؟ ثم ما الهدف أصلاً من وراء عملية التزوير المزعومة؟

(٩٧) انظر في هذه الرسائل مثلاً ابن شهاب الزهري/ المغازي النبوية/ ٥٨ ـ ٦١، وسيرة ابن هشام/ ٢/ ٦٠٦، ٦٠٧، وصحيح البخاري/ باب «كتاب النبي إلى كسرى وقيصر» وغيره، وصحيح مسلم/ باب «الجهاد» و«كتب النبي إلى هرقل» و«كتب النبي إلى ملوك الكفار»، ومسند ابن حنبل/ باب «حديث رسول قيصر إلى رسول الله»، وصحيح الترمذي/ باب «مكاتبة المشركين» و«وما جاء في ختم الكتاب»، وطبقات ابن سعد/ ١/ ٢٥٨ وما بعدها، والطبري/ ٢/٦٤٤ ـ ٦٥٧، وابن حزم/ جوامع السيرة/ ٢٩ ـ ٣١، ومختصر سيرة ابن كثير/ ٣٦٩ ـ ٣٧٥، والجزء الثاني من كتاب «المصباح المضيّ في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وأعجمي» لابن حديدة الأنصاري، وأحمد زكي صفوت/ جمهرة رسائل العرب/ ١/ ٣٢ وما بعدها، ومحمد حميد الله/ مجموعة الوثائق السياسية/ ٩٩ وما بعدها، ود. محمد حسين هيكل/ حياة محمد/ ٣٨٣ ـ ٣٨٥، وعبد المتعال الصعيدي/ السياسة الإسلامية في عهد النبوة/ ١٣٩ ـ ١٦٢، وأحمد إبراهيم الشريف/ مكة والمدينة في عهد الرسول/ ١٠٩، ١١٠، ود. محمد جمال الدين سرور/ قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم/ ١٥٠ ـ ١٥٤، ود. أحمد عبد الرحمن عيسى/ كتّاب الوحي/ ١٠٥ ـ ١٣٤، ومقال د. عز الدين إبراهيم بعنوان =

أما تشكيك بوهل في عالمية الإسلام فلا معنى له، فالآيات القرآنية في مكة والمدينة بهذا الخصوص أشهر وأوضح من أن يماري فيها مماري. وليس فيها مطلقًا ما يدل على أنها محدودة بسياقها كما يزعم الكاتب. ومنها في الوحي المكي: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾(٩٨)،﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾(٩٩). ومن نصوص الوحي المدني: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾(١٠٠). وذلك علاوة على النصوص التي تدعو اليهود والنصارى إلى الدخول في الإسلام ومتابعة محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به، مثل قوله تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ﴾(١٠١)، وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾(١٠٢)، وقوله تبارك جده: ﴿ يَا أَهْلَ

= «الدراسات المتعلقة برسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك في عصره» في المجلد السادس من «البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية بالدوحة/ ٢٤٩ ـ ٢٨٤، وكونستانس جورجيو/ نظرة جديدة في سيرة رسول الله/ ٣٤٢، ٣٤٣، و Ameer Ali, The Spirit of Islam, PP.89 - 91; Afzalur - Rahman, Enclyclopoedia of Seerah, Vol. I, PP. 845 - 851, and Martin Lings, Muhammad, PP. 259 - 260.

(٩٨) الأنبياء: ١٠٧.

(٩٩) سبأ: ٢٨.

(١٠٠) التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨: والصف: ٩. وقد عالج أ. م. طيباوي هذه النقطة بشيء من التفصيل في كتابه: «Arabic and Islamic Themes» / ٥٤، ٥٥.

(١٠١) البقرة: ٤٠، ٤١. (١٠٢) آل عمران: ٦٤.

﴿الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾(١٠٣)، وقوله جل شأنه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾(١٠٤).

وهناك أحاديث نبوية متعددة تنص على عالمية الإسلام نصًا لا يقبل أي تأويل، وذلك مما فُضِّل به الرسول عليه السلام على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين. وهي أحاديث معروفة للجميع. وهناك من المستشرقين من يقر على نحوٍ ما بعالمية الدعوة الإسلامية، مثل نولدكه وجولدتسيهر، وكذلك توماس أرنولد(١٠٥)، الذي عبر عن رأيه هذا بتأليف كتاب عن الدعوة إلى الإسلام بعنوان « Preaching to Islam » وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية والتركية والأوردية.

والطريف أن بوهل، بعد كل هذا الذي قاله في حق الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، يستدير في آخر المقال قائلاً إن إنجازات محمد راجعة إلى يقينه الراسخ بأنه رسول من عند الله(١٠٦). ونحن بدورنا نقول إن هذا الكلام لا يتسق بحال مع ما سبق أن قاله في الرسول عليه السلام. كما أن ذلك اليقين الذي لم يهتز قط خلال ثلاثة وعشرين عامًا هو وحده برهان كاف على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو رسول حقيقي لا مدع ولا مخدوع.

ونختم هذا الفصل بما سبق أن وعدنا به القارئ من الكلام عن الفروق بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث النبوي الشريف بما يدل على أن مصدر هذا

---

(١٠٣) آل عمران: ٧٠. (١٠٤) الأعراف: ١٥٦، ١٥٧.

(١٠٥) انظر: A.L. Tibawi, Arabic and Islamic Themes, P. 54،
ود. عون الشريف قاسم/ دبلوماسية محمد/ ٨٩.

(١٠٦) ١/ ٤٠٥.

غير مصدر ذاك، وأن الرسول لا يمكن أن يكون هو مؤلف القرآن كما يدعي الكافرون به. ولن أسوق هنا كل ما رصدته من هذه الفروق، بل سأكتفي ببعض المقارنات المتفرقة:

فمثلاً على حين نجد في القرآن كلمة «فتنة»، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾(١٠٧)، و﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(١٠٨)، فإننا لا نجد فيه جمعها. أما في الحديث فقد ورد هذا الجمع في شواهد كثيرة منها: «تكون فتن على أبوابها دعاة إلى النار»(١٠٩)، «ومنهن فتن كرياح الصيف»(١١٠)، «ثم تقع الفتن كأنها الظلل»(١١١)، «أعوذ بكلمات الله... من شر فتن الليل»(١١٢)، «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم»(١١٣)، « والسعيد من وُقِيَ الفتن»(١١٤)، «إياكم والفتن»(١١٥)... إلخ.

كذلك فالتركيب المكون من «مَثَل + مضاف إليه + واو عطف + معطوف على المضاف إليه + ك/ مثل + مضاف إليه...» لا وجود له في القرآن الكريم. أما في الحديث فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم

(١٠٧) الأنفال: ٢٥.

(١٠٨) يونس: ٨٥.

(١٠٩) ابن ماجة/ فتن/ ١٣.

(١١٠) مسلم/ فتن/ ٢٢.

(١١١) ابن حنبل/ ٣/٤٧٧.

(١١٢) ابن حنبل/ ٣/٤١٧.

(١١٣) البخاري/ فتن/ ٤ ومظالم/ ٢٥، ومسلم /فتن/٩.

(١١٤) أبو داود/ فتن/ ٢، وابن حنبل/ ١/٣٢٧.

(١١٥) ابن ماجة/ فتن/ ١٢.

أسفلها»[١١٦]، «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير»[١١٧].

وقد لاحظت أن الفعل «وقع» في القرآن الكريم لم يصحبه قط حرف الجر «في» وإنما صحبته «الباء» في بعض المواضع و«عَلَى» في بعض المواضع الأخرى، على حين قد جاءت معه «في» في الأحاديث كثيراً. ومن ذلك: «لو وقعا فيها لدخلا النار جميعًا»[١١٨]، «لقد وقعوا في أمر عظيم»[١١٩]، «لئلا يقع في نفسه شيء من الكبر»[١٢٠]، «وقع في المشبهات/ الشبهات»[١٢١]، «فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر»[١٢٢].

ليس ذلك فحسب، بل إن الفعل «وقع» لم يأت في أي موضع من القرآن بمعنى «جامَعَ»، على عكسه في الأحاديث النبوية، التي من شواهدها قوله صلى الله عليه وسلم: «متى وجدتموه وقع على بهيمة فاقتلوه»[١٢٣]، «بلغني أنك وقعت على جارية بني فلان»[١٢٤]، «لا يقع على حامل حتى تضع»[١٢٥].

---

(١١٦) البخاري/ شركة/ ٦، وشهادات/ ٣٠، والترمذي/ فتن/١٢.

(١١٧) البخاري/ ذبائح/ ٣١، وبيوع / ٣٨، ومسلم/ برّ/ ١٤٦، وأبو داود/ أدب/ ١٦.

(١١٨) ابن حنبل / ٥/ ٦٦.

(١١٩) ابن حنبل/ ٢/ ١١٦.

(١٢٠) ابن ماجة/ مقدمة/ ٢١.

(١٢١) البخاري/ إيمان/ ٣٩، ومسلم/ مساقاة/ ١٠٧، وأبو داود/ بيوع/ ٣، وابن ماجة/ فتن/ ١٤.

(١٢٢) الترمذي/ أدب/ ٧٦.

(١٢٣) الترمذي/ حدود/ ٢٣.

(١٢٤) مسلم/ حدود/ ١٩، وأبو داود/ حدود/ ٢٣، وابن حنبل/ ١/ ٣٢٨.

(١٢٥) ابن حنبل/ ٣/ ٢٨.

ومثل «وقع» في ذلك الفعل «أصاب»، الذي تكرر وروده في القرآن ولكنه لم يُستعمل فيه بمعنى «جامع». أما في الحديث فقد استُعمل بهذا المعنى، ومن شواهده: «إذا أصاب أحدكم المرأة...»(١٢٦)، «فالمهر لها بما أصاب منها»(١٢٧)، «إذا أصابها في الدم فَدِينارٌ»(١٢٨)، «حلّوا وأصيبوا النساء»(١٢٩).

وأيضًا فهذا الفعل لم يأت في القرآن بمعنى «حصل على...»، لكنه ورد في الأحاديث بهذا المعنى، مثل قوله عليه السلام: «... بما أصاب من أجر»(١٣٠)، «فقد أصاب خيراً»(١٣١)، «من أصابه بحقه بورك له فيه»(١٣٢)، «من كانت هجرته لدنيا يصيبها...»(١٣٣)، «... من أين أصاب المال»(١٣٤)، «وإن أصبحت أصبت أجرا»(١٣٥).

ومن مادة «سهم» لم يرد في القرآن إلا الفعل «ساهم» مرة واحدة(١٣٦)، أما في الحديث فقد ورد الفعل «استهم»، مثل: «لو يعلمون ما في الصف المقدم لاستهموا»(١٣٧)، «... أن يستهما على اليمين»(١٣٨)، «... ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا

(١٢٦) الموطأ/ طهارة/ ٧٧.
(١٢٧) أبو داود/ نكاح/ ١٩.
(١٢٨) أبو داود/ نكاح/ ٤٧ وطهارة/ ١٠٥.
(١٢٩) مسلم/ حج/ ١٤١.
(١٣٠) النسائي/ جهاد/ ١٥.
(١٣١) ابن ماجة/ إقامة/ ١١٧٤.
(١٣٢) الترمذي/ زهد/ ٤١.
(١٣٣) البخاري/ بدء الوحي/ ١ ومناقب الأنصار/ ٤٥، ومسلم/ إمارة/ ١٥٥، وأبو داود/ طلاق/ ١١، والنسائي/ طهارة / ٥٩.
(١٣٤) النسائي/ بيوع/ ٢.
(١٣٥) البخاري/ توحيد/ ٣٤.
(١٣٦) الصافات: ١٤١.
(١٣٧) البخاري/ أذان/ ٧٣.
(١٣٨) أبو داود/ أقضية/ ٢٢، وابن ماجة/ أحكام/ ١١، ٢٠، وابن حنبل/ ٢/ ٤٨٩، ٥٢٤.

عليه لاستهموا»[١٣٩]، «فليستهما عليها»[١٤٠]، «... ثم استهما ثم تحالآ»[١٤١].

ومن الكلمات التي تكررت في الحديث النبوي الشريف ومع هذا لم ترد البتة في القرآن كلمة «جليس». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... فلينظر إلى وجه جليسه الذي يعرفه فيعرفه»[١٤٢]، «اللهم يسِّر لي جليسًا صالحًا»[١٤٣]، «مَثَل الجليس الصالح وجليس السوء ...»[١٤٤]، «هم الجُلَساء لا يشقى بهم جليسهم»[١٤٥].

ومن أسرار المقارنات بين أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث الشريف أيضًا أن كلمة «الصالح» (بالألف واللام) لم تأت في القرآن نعتا لأحد من البشر قط، بل لم ترد نعتا أصلاً إلا في قوله تعالى: ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾[١٤٦]، أما الأحاديث النبوية فها هي ذي بعض الشواهد منها: «الرجل الصالح»[١٤٧]، «العبد الصالح»[١٤٨]، «فإن الكَرْم الرجل المسلم الصالح»[١٤٩]، «نعم

(١٣٩) مسلم/ صلاة/ ١٢٩، والترمذي/ مواقيت/ ٥٢، والنسائي/ مواقيت/ ٢٢، والموطأ/ جماعة/ ٦.

(١٤٠) أبو داود / أقضية/ ٢٢، وابن حنبل/ ٢/ ٣١٧.

(١٤١) أبو داود/ أقضية/ ٧، وابن حنبل/ ٦/ ٣٢٠.

(١٤٢) مسلم/ مساجد/ ٢٣٥، والنسائي/ مواقيت/ ١٦، ٢٠.

(١٤٣) البخاري/ فضائل الصحابة/ ٢٧، والترمذي/ مناقب/ ٣٧، والنسائي/ صلاة/ ٩، وابن حنبل/ ٥/ ٤٥١.

(١٤٤) البخاري/ ذبائح/ ٣١، وبيوع/ ٣٨، ومسلم/ برّ/ ١٤٦، وأبو داود/ أدب/ ١٦.

(١٤٥) البخاري/ دعوات/ ٦٦، والترمذي/ دعوات/ ١٢٩.

(١٤٦) فاطر: ١٠.

(١٤٧) البخاري/ صلاة/ ٤٨، ومسلم/ مساجد/ ١٩، والنسائي/ جنائز/ ٤٤، وابن ماجة/ زهد/ ٣٢، وابن حنبل/ ٢/ ٢٩٢.

(١٤٨) البخاري/ الأنبياء/ ٨ ورقاق/ ٤٥، ومسلم/ صلاة/ ٢٠٨/ والترمذي/ قيامة/ ٣، والنسائي/ جنائز/ ١١٩.

(١٤٩) ابن حنبل/ ٢/ ٥٠٩.

المال الصالح للمرء الصالح»[١٥٠]، «... والولد الصالح يُتَوَفَّى فيحتسبه والده»[١٥١]، «مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح والأخ الصالح»[١٥٢]، «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره»[١٥٣]، «وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[١٥٤].

وحين يذكر القرآن المرأة الحبلى فإنه يقول: «ذات حمل/ أولات الأحمال»، ولا يقول «الحامل» أبدًا. أما في الحديث فقد استُخْدِمت هذه الكلمة كثيرًا.

كذلك قد وردت مشتقات « ب ي ع» في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، ولكن ليس منها الفعل «ابتاع»، أما الحديث فمنه هذه الشواهد: «إذا ابتاع المكاتبان... فالبيع للأول»[١٥٥]، «من ابتاع طعامًا فلا يبعه حتى يكتاله»[١٥٦]، «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك»[١٥٧]، «فمن ابتاعها بعد فإنه بخير النظرين»[١٥٨]، «ثم أنت في كل سلعة ابتعتها بالخيار»[١٥٩]، «فلا يبتاعن ذهبا بذهب»[١٦٠]، «... فمبتاع نفسه فمعتقها»[١٦١].

---

(١٥١) ابن حنبل/ ٣/ ٤٤٣، و٤/ ٢٣٧.

(١٥٢) البخاري/ صلاة/ ١، ومسلم/ إيمان/ ٢٦٣، وابن حنبل/ ٤/ ٢٠٨.

(١٥٣) ابن حنبل/ ٣/ ٣٦٠، ٣٧٧.

(١٥٤) مسلم/ رضاع/ ٦٤، والنسائي/ نكاح/ ١٥.

(١٥٥) الدارمي/ فرائض/ ٤٨.

(١٥٦) أبو داود/ بيوع/ ٦٥، والنسائي/ بيوع/ ٥٥.

(١٥٠) ابن حنبل/ ٤/ ١٩٧، ٢٠٢.

(١٥٧) الترمذي/ بيوع/ ٧٥، والموطأ/ سفر/ ٩٢، والدارمي/ صلاة/ ١١٨.

(١٥٨) البخاري/ بيوع/ ٦٤، ومسلم/ بيوع/ ١١، وأبو داود/ بيوع/ ١٣، والموطأ/ بيوع/ ٦٩، وابن حنبل/ ٢/ ٢٤٢.

(١٥٩) ابن ماجة/ أحكام/ ٢٤، وابن حنبل/ ٢/ ٤٠٣.

(١٦٠) ابن حنبل/ ٤/ ١٠٩.

(١٦١) ابن حنبل/ ٣/ ٣٢١، ٣٩٩.

هذا، ولا نجد في القرآن أي شيء من مادة «ن ت ن»، على عكس الأحاديث، التي نسوق منها هذه الشواهد: «تباعد عنه الملك من نتن ما جاء به»(١٦٢)، «تدفع بأنفها النتن»(١٦٣)، «... حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم»(١٦٤)، «فليأكله إلا أن ينتن»(١٦٥)، «إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه»(١٦٦)، «ألم أنه عن هاتين الشجرتين المنتنتين؟»(١٦٧)، «يُخْرِج الله قومًا منتنين قد محشتهم النار»(١٦٨)، «دعوها، فإنها منتنة»(١٦٩).

وبالنسبة لاستعمال كلمة «المؤمن» بالألف واللام في القرآن والحديث نلاحظ أنها لم تأت في القرآن إلا مرة واحدة لا غير. وحتى في هذه المرة كان المقصود بها الله سبحانه. أما في الأحاديث فقد وردت كثيرًا مقصودًا بها البشر: «المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله... أحب لقاء الله»(١٧٠)، «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم»(١٧١)، «المؤمن بخير على كل حال»(١٧٢)، «المؤمن غرّ كريم»(١٧٣)، «المؤمن للمؤمن كالبنيان

(١٦٢) الترمذي/ بر/ ٤٦.

(١٦٣) أبو داود/ آداب/ ١١١، وابن حنبل/ ٢/ ٣٦١.

(١٦٤) ابن حنبل/ ١/ ٣٧٥.

(١٦٥) النسائي/ صيد/ ٢٠.

(١٦٦) البخاري/ أحكام/ ٩.

(١٦٧) ابن حنبل/ ٣/ ٣٨٧.

(١٦٨) ابن حنبل/ ٥/ ٤٠٢.

(١٦٩) البخاري/ تفسير سورة ٦٣/ ٥، ٧، ومسلم/ بر/ ٦٤، والترمذي/ تفسير سورة ٦٣/ ٤، وابن حنبل/ ٣/ ٣٣٨، ٣٩٣.

(١٧٠) مسلم/ ذكر/ ١٥، والترمذي/ جنائز/ ٦٧.

(١٧١) ابن ماجة/ فتن/ ٢٣، وابن حنبل/ ٢/ ٤٣و ٥/ ٣٦٥.

(١٧٢) النسائي/ جنائز/ ١٣.

(١٧٣) أبو داود/ أدب/ ٥، وابن حنبل/ ٢/ ٣٩٤.

لد بعضه بعضا»[174]، «المؤمن لا ينجس»[175]، «المؤمن من أمنَه الناس على دمائهم موالهم»[176]، «المؤمن مرآة المؤمن»[177]، «المؤمن مألفة»[178]، «المؤمن يؤجر في كل مي ء»[179].

ومثل «المؤمن» في ذلك كلمة «الضعيف»، فإنها لم ترد في القرآن قط بالألف اللام، بل جاءت دائما منكّرة، وكانت في كل الحالات منصوبة (هكذا: ضعيفا»)[180]. أما في الحديث فقد وردت معرفة بـ «أل» مرات غير قليلة: «وإذا سرق يهم الضعيف أقاموا عليه الحد»[181]، «يصلي وراءك الكبير والضعيف»[182]، «جهاد لكبير والضعيف والمرأة الحج والعمرة»[183]، «..وترفع بشدة ذراعيك مع لضعيف»[184]، «إن من أمتك الضعيف»[185].

(١٧٤) البخاري/ مظالم/ ٥ وأدب/ ٣٦، والترمذي/ بر/ ١٨، والنسائي/ زكاة/ ٦٧، وابن حنبل/ ٤/ ٤٠٤، ٤٠٩.

(١٧٥) البخاري/ جنائز/ ٨، ومسلم/ حيض/ ١١٥، والنسائي/ طهارة/ ١١٧، وابن ماجة/ طهارة/ ٨٠.

(١٧٦) الترمذي/ إيمان/ ١٢، والنسائي/ إيمان/ ٨، وابن ماجة/ فتن/ ٢، وابن حنبل/ ٣/ ١٥٤.

(١٧٧) أبو داود/ أدب/ ٤٩.

(١٧٨) ابن حنبل/ ٥/ ٣٣٥ و٢/ ٤٠٠.

(١٧٩) الدارمي/ رقاق/ ٦١.

(١٨٠) البقرة: ٢٨٢، والنساء: ٢٨، ٧٦، وهود: ٩١.

(١٨١) البخاري/ فضائل أصحاب النبي/ ١٨، ومسلم/ حدود/ ٨، ٩، وأبو داود/ حدود/ ٤، والدارمي/ حدود/ ٥.

(١٨٢) أبو داود/ صلاة/ ١٢٤، وابن حنبل/ ٣/ ٢٩٩.

(١٨٣) ابن حنبل/ ٢/ ٤٢١، والنسائي/ مناسك/ ٤.

(١٨٤) ابن حنبل/ ٥/ ١٦٩.

(١٨٥) ابن حنبل/ ٥/ ٣٨٥، ٤٠١.

ومثل «المؤمن» و «الضعيف» كلمة «الرجل»، إذ إنها كثيراً ما جاءت في الحديث مُعَرَّفة بـ «أل»، أما في القرآن فلم تأت إلا منكرة. ومن شواهد تعريفها بالألف واللام في الأحاديث: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه...»(١٨٦)، «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل»(١٨٧)، «ترى المرأة في المنام ما يرى الرجل»(١٨٨)، «والرجل راعٍ في أهله»(١٨٩)، «إن ماء الرجل غليظ أبيض»(١٩٠)، «صلاة الرجل مع الرجل أفضل من صلاته وحده»(١٩١)، «إن الرجل لا يقطع صلاة الرجل»(١٩٢).

ورغم ورود الفعل «حرص» في القرآن الكريم فليس فيه مصدره، أما الأحاديث النبوية فقد جاء فيها، ومن ذلك: «أوَجَعٌ يشئزك أم حِرْصٌ على الدنيا؟»(١٩٣)، «الحرص على العمر، والحرص على المال...»(١٩٤)، «... وتبقى معه اثنتان: الحرص والأمل»(١٩٥)، «ما... بأفسد لها من حرص المرء على المال»(١٩٦)، «زادك الله

(١٨٦) البخاري/ بدء الخلق/ ٧ ونكاح/ ٨٥.

(١٨٧) مسلم/ حيض/ ٧٤، وأبو داود/ حمام/ ٢.

(١٨٨) ابن حنبل/ ٢/ ٩٠.

(١٨٩) البخاري/ جمعة/ ١١، وابن حنبل/ ٢/ ٥، ٥٤.

(١٩٠) مسلم/ حيض/ ٣٠، والنسائي/ طهارة/ ١٣٢.

(١٩١) النسائي/ إمامة/ ٤٥.

(١٩٢) البخاري/ صلاة/ ١٠٢.

(١٩٣) الترمذي/ زهد/ ١٩.

(١٩٤) الترمذي/ زهد/ ٢٨ وقيامة/ ٢٢، ومسلم/ زكاة/ ١١٥، وابن ماجة/ زهد/ ٢٧.

(١٩٥) ابن حنبل/ ٣/ ١١٥، ١١٩، ٢٧٥.

(١٩٦) الترمذي/ زهد/ ٤٣، والدارمي/ رقاق/ ٢١، وابن حنبل/ ٣/ ٤٥٦، ٤٦٠.

رصا»[١٩٧].

كذلك ففي الوقت الذي لم يرد فيه فعل الأمر من «استعان» في القرآن الكريم لا مسندا إلى جماعة المخاطبين، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف مسندا إلى لخاطب المفرد، إلى جانب إسناده لجماعة المخاطبين أيضا: «استعن بيمينك»[١٩٨]، ثم استعن بسائره عليك»[١٩٩]، «فاستعن بالله وقاتلهم»[٢٠٠]، «فاستعن عليه من حولك ن المسلمين»[٢٠١]، «واستعن بالله ولا تعجز»[٢٠٢].

ومن خفايا المقارنات الأسلوبية في هذا المجال أنك لا تجد الفعل «أتى بـ...»

(بمعنى «أحضر») مبنيا للمجهول في أي موضع في القرآن الكريم، على حين نه تكرر وروده كذلك في الحديث، مثل: «أُتِي بالموت ملبّبا فيوقف على السور»[٢٠٣]، يُؤْتَى بالعبد يوم القيامة...»[٢٠٤]، «يؤْتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام»[٢٠٥]، سيُؤْتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم»[٢٠٦].

---

١٩٧) البخاري/ أذان/ ١١٤، وأبو داود/ صلاة/ ١٠٠، والنسائي/ إمامة/ ٦٣، وابن حنبل/ ٥/ ٥٠.

١٩٨) الترمذي/ علم/ ١٢.

١٩٩) الترمذي/ تفسير سورة ٥٨/ ١، وابن حنبل/ ٤/ ٣٧.

٢٠٠) مسلم/ جهاد/ ٢، وأبو داود/ جهاد/ ٨٢، وابن ماجة/ جهاد/ ٣٨، وابن حنبل/ ١/ ٣٥٨.

٢٠١) النسائي/ تحريم/ ٢١.

٢٠٢) مسلم/ قدر/ ٣٤، وابن ماجة/ مقدمة/ ١٠.

٢٠٣) الترمذي/ جنة/ ٢٠.

٢٠٤) الترمذي/ قيامة/ ٦.

٢٠٥) الترمذي/ جهنم/ ١.

٢٠٦) النسائي/ جنائز/ ١١٩.

كذلك لم يأت في القرآن أي من مشتقات «دلج»، ولكننا نجد في الأحاديث الشواهد التالية وأشباهها: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[٢٠٧]، «إنا مدلجون، فلا يدلجن مصعب»[٢٠٨]، «عليكم بالدلجة»[٢٠٩].

أما عبارة «أهل النار» ففي الوقت الذي لا نجدها في القرآن إلا في موضع واحد ليس غير[٢١٠] إذا بها تتكرر كثيراً في الأحاديث النبوية المشرفة، كما في قوله عليه السلام: «... كتاب فيه أسماء أهل النار»[٢١١]، «أشد أهل النار عذابا...»[٢١٢]، «(فإنكن) أكثر أهل النار»[٢١٣]، «وإن كان شراً فلا يبعد إلا أهل النار»[٢١٤]، «إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر»[٢١٥]، «ما لي أرى عليك حلية أهل النار؟»[٢١٦]، «وأعوذ بك من حال أهل النار»[٢١٧]، «يلقى على أهل النار الجوع»[٢١٨]، «يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار»[٢١٩]، «ألا أخبركم

(٢٠٧) الترمذي/ قيامة/ ١٨.

(٢٠٨) ابن حنبل/ ٥/ ٢٧٥.

(٢٠٩) أبو داود/ جهاد/ ٥٧.

(٢١٠) ص: ٦٤.

(٢١١) الترمذي/ قد/ ٨.

(٢١٢) مسلم/ لباس/ ٩٩، وابن حنبل/ ١/ ٤٢٦.

(٢١٣) البخاري/ حيض/ ٦ وزكاة/ ٤٤، ومسلم/ إيمان/ ١٣٢، والترمذي/ إيمان/ ٦، وابن ماجة/ فتن/ ١٩، وابن حنبل/ ١/ ٢٧٦.

(٢١٤) الترمذي/ جنائز/ ٢٧.

(٢١٥) ابن حنبل/ ٢/ ٢١٤.

(٢١٦) أبو داود/ خاتم/ ٤، والترمذي/ لباس/ ٤٣، والنسائي/ زينة/ ٤٦.

(٢١٧) ابن ماجة/ أدب/ ٥٥.

(٢١٨) الترمذي/ جهنم/ ٥.

(٢١٩) ابن ماجة/ زهد/ ٢٥، وابن حنبل/ ٦/ ٤٦٦.

بأهل النار؟»(٢٢٠). وغير ذلك كثير.

وقد جاء في القرآن الفعل الماضي «اجتمع» واسم فاعله، ولكن لم يرد فيه مضارعه، أما في الحديث فتقابلنا هذه الأمثلة وغيرها: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة...»(٢٢١)، «لا يجتمع الإيمان والكفر»(٢٢٢)، «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»(٢٢٣)، «لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً»(٢٢٤)، «ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا»(٢٢٥)، «وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار»(٢٢٦)، «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة»(٢٢٧).

ومما لاحظته في هذا المجال أن مفعول «الإتقاء» في القرآن لا يكون إلا عقاباً أو ضرراً (أي نتيجة لا سبباً) أو لفظ الجلالة، ولم يحدث أن كان مفعوله السبب الذي أدى إلى الضرر أو العقاب. ومن الشواهد القرآنية على ما قلناه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾(٢٢٨)، (واليوم هنا هو اليوم الذي يقع فيه العقاب الإلهي)، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(٢٢٩)، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ

(٢٢٠) البخاري/ تفسير سورة ٦٨/ ١، ومسلم/ جنة/ ٤٦، ٤٧، والترمذي/ جهنم/ ١٣، وابن ماجة/ زهد/ ٢٤، وابن حنبل/ ٣/ ١٤٥.

(٢٢١) البخاري/ تفسير سورة ٢/ ١، ومسلم/ إيمان/ ٣٢٣، وابن ماجة/ زهد/ ٣٠٧.

(٢٢٢) ابن حنبل/ ٢/ ٣٤٩.

(٢٢٣) الموطأ/ مدينة/ ١٨، ١٩.

(٢٢٤) مسلم/ إمارة/ ١٣٠، ١٣١، وأبو داود/ جهاد/ ١٠، والنسائي/ جهاد/ ٨.

(٢٢٥) الترمذي/ حج/ ٤٤، والدارمي/ مناسك/ ٧٤.

(٢٢٦) البخاري/ أذان/ ٣١، والنسائي/ صلاة/ ٢١، والموطأ/ سفر/ ٨٢.

(٢٢٧) ابن ماجة/ فتن/ ٨.

(٢٢٨) البقرة: ٤٨، ١٢٣.

(٢٢٩) البقرة: ٢٨١.

﴿ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾(٢٣٠)، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(٢٣١)، ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٢٣٢)، وذلك إلى جانب الآيات التي تتحدث عن «اتقاء الله»، وما أكثرها! أما في الأحاديث فكثيراً ما كان مفعول «الاتقاء» هو السبب المؤدي إلى العقاب أو المضرة مثل: «فمن اتَّقَى المحارم فهو أعبد الناس»(٢٣٣)، «ومن اتقى الشبهات استبرأ لدينه/ لعرضه»(٢٣٤)، «إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره»(٢٣٥)، «إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه»(٢٣٦)، «واتق دعوة المظلوم»(٢٣٧)، «واغسل أثر الخلوق، واتّق الصفرة»(٢٣٨)، «اتقوا الحديث عني»(٢٣٩)، «اتقوا خداج الصلاة»(٢٤٠)، «اتقوا الظلم»(٢٤١)، «اتقوا فراسة المؤمن»(٢٤٢)، «اتقوا

(٢٣٠) الأنفال: ٢٥.

(٢٣١) البقرة: ٢٤.

(٢٣٢) الزمر: ٢٤.

(٢٣٣) الترمذي/ زهد/ ٢.

(٢٣٤) البخاري/ إيمان/ ٣٩، ومسلم/ مساقاة/ ١٠٧، وأبو داود/ بيوع/ ٣، وابن ماجة/ فتن/ ١٤، والدارمي/ بيوع/ ١.

(٢٣٥) الموطأ/ حسن الخلق/ ٤.

(٢٣٦) مسلم/ بر/ ١١٣، وأبو داود/ حدود/ ٣٨، وابن حنبل/ ٢/ ٥٠٩.

(٢٣٧) البخاري/ زكاة/ ٦٣، ومغازي/ ٦٠، ومسلم/ إيمان/ ٢٩، وأبو داود/ زكاة/ ٥، والموطأ/ دعوة المظلوم/١.

(٢٣٨) البخاري/ عمرة/ ١٠.

(٢٣٩) ابن حنبل/ ١/ ٣٢٧.

(٢٤٠) ابن حنبل/ ٣/ ٤٣.

(٢٤١) مسلم/ برّ/ ٥٦، وابن حنبل/ ٢/ ٢/ ١٣٦.

(٢٤٢) الترمذي/ تفسير سورة ١٥/٦.

الملاعن الثلاث»[٢٤٣]، «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[٢٤٤]... إلخ.

ويستعمل القرآن «الظلمات» ولا يستعمل مفردها «ظلمة»، أما الحديث فيستخدم «الظلمة» أيضًا، ومن ذلك: «وتغشاه ظلمة»[٢٤٥]، «حتى اشتدت ظلمتها»[٢٤٦]، «كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها»[٢٤٧]، «... وليلة شديدة الظلمة»[٢٤٨]، و«خلق خلقه في ظلمة»[٢٤٩]، «من مشى في ظلمة ليل إلى صلاة...»[٢٥٠]، «إن هذه القبور مملوءة ظلمة»[٢٥١].

وفي القرآن الكريم نجد كلمة «ظلّم» ولا نجد كلمة «مظلمة» البتة، بينما تتكرر هذه الكلمة في الأحاديث. ومن شواهدها: «كانت لأخيه عنده مظلمة»[٢٥٢]، «وليس لأحد عنده مظلمة»[٢٥٣]، «أخذ منه بقدر مظلمته»[٢٥٤]، «ولا ظُلِم عبد مظلمة...»[٢٥٥]، «وتُثيب المظلوم خيرا من مظلمته»[٢٥٦]، «...فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا»[٢٥٧].

---

(٢٤٣) مسلم/ طهارة/ ٦٨، وأبو داود/ طهارة/ ١٤، وابن ماجة/ طهارة/ ٢١، وابن حنبل/ ٢/ ٣٧٢.

(٢٤٤) مسلم/ ذكر/ ٩٩، والترمذي/ فتن/ ٢٦، وابن ماجة/ فتن/ ١٩، وابن حنبل/ ٣/ ١٩.

(٢٤٥) ابن حنبل/ جنائز/ ٣٢. (٢٤٦) ابن حنبل/ ٤/ ٢٤٥.

(٢٤٧) الترمذي/ رضاع/ ١٣. (٢٤٨) ابن حنبل/ ٣/ ١٣٨.

(٢٤٩) الترمذي/ إيمان/ ١٨، وابن حنبل/ ٢/ ١٧٦، ١٩٧.

(٢٥٠) الدارمي/ صلاة/ ١٣٣. (٢٥١) مسلم/ جنائز/ ٧١، وابن حنبل/ ٢/ ٣٣٧، ٣٧٢.

(٢٥٢) الترمذي/ قيامة/ ٧. (٢٥٣) أبو داود/ بيوع/ ٤٩، وابن حنبل/ ٢/ ٣٣٧، ٣٧٢.

(٢٥٤) البخاري/ مظالم/ ١٠، وابن حنبل/ ٢/ ٥٠٦.

(٢٥٥) الترمذي/ زهد/ ١٧، وابن حنبل/ ٢/ ٤٣٦ و٤/ ٢٣١.

(٢٥٦) ابن حنبل /٤/ ١٤.

(٢٥٧) البخاري/ رقاق/ ٤٨ ومظالم/ ١، وابن حنبل/ ٣/ ١٣، ٧٤.

وبالنسبة لـ «الإهلاك» لم يحدث أن أسنده القرآن إلى معنى من المعاني إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾(٢٥٨). وحتى في هذه المرة اليتيمة فإن الذي أسنده إلى ذلك إنما هم الكافرون. أما في الحديث النبوي فقد تكرر فيه إسناد الإهلاك إلى المعاني المجردة، مثل: «إنما أهلك من كان قبلكم الفُرْقة/ الاختلاف»(٢٥٩)، «إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم»(٢٦٠)، «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه»(٢٦١)، «اتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم»(٢٦٢)، «أخشى أن تُبْسَط عليكم الدنيا... وتُهلككم كما أهلكتهم»(٢٦٣)، «أهلك من كان قبلكم الغُلُوّ»(٢٦٤).

وأيضًا لم يُذْكَر «الشُّحُّ» في القرآن إلا مقترنا بالنفس: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾(٢٦٥)، ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾(٢٦٦)، أما الحديث الشريف فها هي ذي عدة شواهد منه على وروده غير مقترن بها: «شرّ ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»(٢٦٧)، «لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل

(٢٥٨) الجاثية: ٢٤.

(٢٥٩) ابن حنبل/ ١/ ١٧٨، ٤١٩.

(٢٦٠) البخاري/ اعتصام/ ٢، ومسلم / فضائل/ ١٣٠، وابن حنبل/ ٢/ ٤٨٢.

(٢٦١) البخاري/ أنبياء/ ٥٤ وحدود/ ١٢، ومسلم/ حدود/ ٨، والترمذي/ حدود/ ٦.

(٢٦٢) مسلم/ برّ/ ٥٦، وابن حنبل/ ٢/ ١٦٠، ٣/ ٣٢٣.

(٢٦٣) البخاري/ جزية/ ١ ومغازي/ ١٢، ومسلم/ زهد/ ٦، والترمذي/ قيامة/ ٢٨، وابن ماجة/ فتن/ ١٨.

(٢٦٤) النسائي/ مناسك/ ٢١٧، وابن ماجة/ مناسك/ ٦٣، وابن حنبل/ ١/ ٣٤٧.

(٢٦٥) في موضعين: الحشر: ٩، والتغابن: ١٦.

(٢٦٦) النساء: ١٢٨.

(٢٦٧) أبو داود/ جهاد/ ٢١، وابن حنبل/ ٢/ ٣٠٢، ٣٢٠.

مسلم»[٢٦٨]، «... ولا الناس إلا شحا»[٢٦٩]، «... إذا رأيت شحا مطاعا»[٢٧٠].

كذلك لم يرد «سفك الدماء» في القرآن بصيغة الفعل الماضي قط، أما في الأحاديث النبوية الكريمة فقد وردت هذه الصيغة مرات، ومن ذلك: «...سَفَك دمه وعقر جواده»[٢٧١]، «..وسَفَك بعضهم دماء بعض»[٢٧٢]، «...سَفَك دم هذا»[٢٧٣]، «...حملهم على أن سَفَكوا دماءهم»[٢٧٤]، «...سفكوا الدم الحرام»[٢٧٥]، «...قطعوا السبيل وسفكوا الدم»[٢٧٦].

ومن الألفاظ التي وردت في الأحاديث ولم ترد في القرآن البتة أيضا لفظة «استحلَّ»: «من أعطى في صداق امرأة ملء كفيه... فقد استحل»[٢٧٧]، «...بما استحللت/ استحل من فرجها»[٢٧٨]، «واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[٢٧٩]، «إن

(٢٦٨) ابن حنبل/ ٢/ ٢٥٦، ٤٣٠، ٤٤١، والنسائي/ جهاد/ ٨.

(٢٦٩) ابن ماجة/ فتن/ ٢٤.

(٢٧٠) أبو داود/ ملاحم/ ١٧، والترمذي/ تفسير سورة ٥/ ١٨، وابن ماجة/ فتن/ ٢١.

(٢٧١) ابن حنبل/ ٥/ ٢٦٥.

(٢٧٢) ابن حنبل/ ٦.

(٢٧٣) مسلم/ بر/ ٦٠، والترمذي/ قيامة/ ٢، وابن حنبل/ ٢/ ٣٧٢.

(٢٧٤) مسلم/ بر/ ٥٧، وابن حنبل/ ٢/ ١٣١ و٣/ ٣٢٣.

(٢٧٥) مسلم/ زكاة/ ١٥٦، وأبو داود/ سنة/ ٢٨، وابن حنبل/ ١/ ٨٧، ٩١.

(٢٧٦) ابن حنبل/ ١/ ٨٧.

(٢٧٧) أبو داود/ نكاح/ ٢٩.

(٢٧٨) البخاري/ طلاق/ ٣٣، ٥٣، ومسلم/ لعان/ ٥، وأبو داود/ نكاح/ ٣٧/ وطلاق/ ٢٧، والترمذي/ نكاح/ ١٥، والنسائي/ طلاق/ ٤٤، والدارمي/ نكاح/ ١١، وابن حنبل/ ٢/ ١١.

(٢٧٩) مسلم/ حج/ ١٤٧، وأبو داود/ مناسك/ ٥٦، وابن ماجة/ مناسك/ ٨٤، والدارمي/ مناسك/ ٣٤.

الشيطان يستحل الطعام»[٢٨٠]، «ولن يستحل البيت إلا أهله»[٢٨١]، «..ومجلس يُسْتَحلّ فيه فرج حرام»[٢٨٢]، «بم تستحل مال أخيك؟»[٢٨٣]، «واستحلال البيت الحرام»[٢٨٤].

ومثل «استحل» في ذلك كلمة «مَحْرَم/ محارم»، «ومن وقع على ذات محرم فاقتلوه»[٢٨٥]، «لا تسافر المرأة فوق ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم»[٢٨٦]، «لا يَخْلُوَنّ رجل بامرأة إلا ذو محرم»[٢٨٧]، «من ملك ذا رحم محرم فهو حر»[٢٨٨]، «وإنّ حِمَى الله في أرضه محارمه»[٢٨٩]، «..والكف عن المحارم والدماء»[٢٩٠]، «اتق المحارم تكن أعبد الناس»[٢٩١]، «... باستحلالهم المحارم والقيان»[٢٩٢]، «ما آمن بالقرآن من استحل

(٢٨٠) مسلم/ أشربة/ ١٠٢، وأبو داود/ أطعمة/ ١٥، وابن حنبل / ٥/ ٣٨٣، ٣٩٨.

(٢٨١) ابن حنبل/ ٢/ ٢٩١، ٣٥١.

(٢٨٢) ابن حنبل/ ٣/ ٣٤٣.

(٢٨٣) البخاري/ بيوع/ ٩٣، ومسلم/ مساقاة/ ١٥، وأبو داود/ بيوع/ ٥٦، وابن ماجة/ تجارات/ ٦١.

(٢٨٤) أبو داود/ وصايا/ ١٠.

(٢٨٥) الترمذي/ حدود/ ٢٩، وابن ماجة/ حدود/ ١٣، وابن حنبل/ ١/ ٣٠٠.

(٢٨٦) البخاري/ تقصير الصلاة/ ٤ وصيد/ ٢٦، ومسلم/ حج/ ٤١٣ ـ ٤٢٤، والترمذي/ رضاع/ ١٥، وابن ماجة/ مناسك/ ٧، والموطأ/ استئذان/ ٣٧، وابن حنبل/ ١/ ٢٢٢ و٢/ ١٤٣.

(٢٨٧) البخاري/ نكاح/ ١١١ وجهاد/ ١٤٠، وابن حنبل/ ٣/ ٣٣٩، ٤٤٦.

(٢٨٨) أبو داود/ عتاق/ ٧، والترمذي/ أحكام/ ٢٨، وابن ماجة/ عتق/ ٥.

(٢٨٩) البخاري/ إيمان/ ٣٩، ومسلم/ مساقاة/ ١٠٧، والترمذي/ بيوع/ ١، وابن ماجة/ فتن/ ١٤، والدارمي/ بيوع/ ١، وابن حنبل/ ٤/ ٢٦٧، ٢٧١.

(٢٩٠) ابن حنبل/ ١/ ٢٠٢و ٥/ ٢٩١.

(٢٩١) الترمذي/ زهد/ ٢، وابن حنبل/ ٢/ ٣١٠ (٢٩٢) ابن حنبل/ ٥/ ٣٢٩.

محارمه»[٢٩٣]، «محارم الله»[٢٩٤]، «... ومن وقوع على المحارم»[٢٩٥]، «حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[٢٩٦].

وهناك بعض الأسرار الأسلوبية الخاصة باستخدام القرآن الكريم والحديث الشريف لكلمة «الدنيا»: ففي القرآن لم يحدث أن وردت هذه الكلمة منكّرة، على حين وردت كذلك في الأحاديث النبوية، ومن ذلك: «لا وربك لا أسألهم عن دنيا»[٢٩٧]، «...يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا»[٢٩٨]، «...شحًا مطاعًا وهوى متّبعًا ودنيا مُؤْثرة»[٢٩٩]، «فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها...»[٣٠٠].

كذلك لم يحدث أن أُخبر في القرآن عن الحياة الدنيا (سواء كانت مبتدأً أو اسما لناسخ) إلا بالقصر بـ «ما .... إلا» أو «إنما»[٣٠١]، أما في الأحاديث النبوية المشرفة فكثيرًا ما أُخبر عن الدنيا دون قصر، مثل: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٣٠٢]، «الدنيا دار من لا دار له»[٣٠٣]، «الدنيا متاع»[٣٠٤]، «من كانت الدنيا

(٢٩٣) الترمذي/ ثواب القرآن/ ٢٠.

(٢٩٤) البخاري/ رقاق/ ٢٠، ومسلم/ فضائل/ ٧٩، وابن ماجة/ زهد/ ٢٩، والدارمي/ جهاد/ ١١، وابن حنبل/ ٤/ ١٨١، و٦/ ٣٢، ٢٨١.

(٢٩٥) النسائي/ أشربة/ ٤٤.

(٢٩٦) مسلم/ بر/ ٥٧، وابن حنبل/ ٢/ ٤٣١، و٣/ ٣٢٣.

(٢٩٧) مسلم/ زكاة/ ٣٤.

(٢٩٨) الترمذي/ قيامة/ ٢١.

(٢٩٩) مسلم/ زكاة/ ٣٤.

(٣٠٠) أبو داود/ ملاحم/ والترمذي/ تفسير سورة ١٨، وابن ماجة/ فتن/ ٢١.

(٣٠١) وذلك في العنكبوت: ٦٤، وغافر: ٣٩، ومحمد: ٣٦، والحديد: ٢٠، ٢٦.

(٣٠٢) مسلم/ زهد/ ١، والترمذي/ زهد/ ١٦، وابن ماجة/ زهد/ ٣، وابن حنبل/ ٢/ ١٩٧، ٣٨٩.

(٣٠٣) ابن حنبل/ ٦/ ٧١.

(٣٠٤) مسلم/ رضاع/ ٦٠، وابن ماجة/ ٥، وابن حنبل/ ٢/ ١٨٦.

همّه...»[٣٠٥]، «الدنيا أهون على الله... من هذا»[٣٠٦]، «لو كانت الدنيا تعدل عند الله...»[٣٠٧].

وفي القرآن لم تأت «الدنيا» مضافة قط، على عكسها في الحديث الشريف، مثل: «...فتذهب دنياك وآخرتك»[٣٠٨]، «أذهب آخرته بدنيا غيره»[٣٠٩]، «... كفاه الله هم دنياه»[٣١٠]، «...يجمعن لك خير دنياك وآخرتك»[٣١١]، «... أمر دنياكم»[٣١٢]، «...مالوا عليَّ بدنياهم»[٣١٣]، «...لا يبايعه إلا لدنياه»[٣١٤]، «من أحب دنياه أضرّ بآخرته»[٣١٥]، «ويرث دنياكم شراركم»[٣١٦].

وعبثًا نبحث في القرآن الكريم عن كلمة «حلو» أو «حلاوة» أو أي من مشتقاتهما، ومع ذلك تقابلنا الأحاديث التالية وأمثالها: «إن هذا المال خضر

---

(٣٠٥) الترمذي/ قيامة/ ٣٠، وابن ماجة/ زهد/ ٢.

(٣٠٦) مسلم/ زهد/ ٢، والترمذي/ زهد/ ١٣، وابن ماجة/ زهد/ ٣.

(٣٠٧) الترمذي/ زهد/ ١٣، وابن ماجة/ زهد/ ٣.

(٣٠٨) ابن حنبل/ ٦/ ٣.

(٣٠٩) ابن ماجة/ فتن/ ١١.

(٣١٠) ابن ماجة/ مقدمة/ ٢٣ وزهد/ ٢.

(٣١١) ابن حنبل/ ٦/ ٣٩٤.

(٣١٢) مسلم/ فضائل/ ١٤١، وابن ماجة/ رهون/ ١٥، وابن حنبل/ ٥/ ١٦ و٦/ ١٢٨.

(٣١٣) ابن حنبل/ ٥/ ١٥٩.

(٣١٤) البخاري/ مساقاة/ ٥، وأحكام/ ٤٨، ومسلم/ إيمان/ ١٧٣، وابن ماجة/ تجارات/ ٣٠، وابن حنبل/ ٢/ ٢٥٣، ٤٨٠.

(٣١٥) ابن حنبل/ ٤/ ٤١٢.

(٣١٦) الترمذي/ فتن/ ٩، وابن ماجة/ فتن/ ٢٥.

حلو»[٣١٧]، «التمرة لا ريح لها، وطعمها حلو»[٣١٨]، «... بالأقدار كلها: خيرها وشرها، وحلوها ومـرها»[٣١٩]، «حلوة الدنيا مرة الآخرة، ومرة الدنيا حلوة الآخرة»[٣٢٠]، «فللقرآن حلاوة تنطف»[٣٢١]، «... أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها»[٣٢٢].

أما الفعل «أبشر» فإنه رغم عدم مجيئه في القرآن إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[٣٢٣] (وهو كما ترى تبشير بالجنة، وهي من أمور الآخرة)، فإنه قد ورد مرارًا في الأحاديث، وكثير منها تبشير بأمور تقع في الدنيا: «أبشر. إن الله... يقول: ناري أسلطها...»[٣٢٤]، «أَبْشِر بخير يوم مـرّ عليك منذ ولدتك أمك»[٣٢٥]، «فَسُرِّيَ عن رسول الله فقال: أَبْشِر يا هلال»[٣٢٦]، «أَبْشِرْ بروْح وريحان، ورب غير غضبان»[٣٢٧]، «أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك»[٣٢٨]، «أَبْشِروا. إن من نعمة الله عليكم أنه...»[٣٢٩]، «أَبْشِروا وبشِّروا مَنْ

(٣١٧) البخاري/ وصايا/ ٩، وجهاد/ ٣٧، وخمس/ ١٩.

(٣١٨) مسلم/ مسافرين/ ٢٤٣، والترمذي/ أدب/ ٧٩، والدارمي/ فضائل القرآن/ ٨.

(٣١٩) ابن ماجة/ مقدمة/ ١٠. (٣٢٠) ابن حنبل/ ٥/ ٣٤٢.

(٣٢١) البخاري/ تعبير/ ٤٧، ومسلم/ رؤيا/ ١٧، وأبو داود/ سنة/ ٨، والترمذي/ رؤيا/ ١٠، وابن ماجة/ رؤيا/ ١٠، والدارمي/ رؤيا/ ١٣، وابن حنبل/ ١/ ٢٣٦.

(٣٢٢) ابن حنبل/ ٥/ ٢٦٤. (٣٢٣) فصلت: ٣٠.

(٣٢٤) ابن حنبل/ ٣/ ٤٤٠.

(٣٢٥) مسلم/ توبة/ ٥٣، والترمذي/ تفسير سورة ٩/ ١٧.

(٣٢٦) أبو داود/ طهارة/ ٢٧، وابن حنبل/ ١/ ٢٣٣.

(٣٢٧) ابن ماجة/ زهد/ ٣١، وابن حنبل/ ٢/ ٣٦٤، و٦ / ١٤٠.

(٣٢٨) البخاري/ تفسير سورة ٢٤/ ١١، ومسلم/ توبة/ ٥٦، وأبو داود/ أدب/ ١٤٥، وابن حنبل/ ٦/ ٦٠، ١٩٧.

(٣٢٩) البخاري/ مواقيت/ ٢٢، ومسلم/ مساجد/ ٢٤، والترمذي/ تفسير سورة ٢٢/ ٢، وابن حنبل/ ٤/ ٤٣٥.

وراءكم»(٣٣٠)، «يا بني تميم، أبْشِروا»(٣٣١)، «فأبْشِروا وأمِّلوا ما يسرّكم»(٣٣٢)، «فسددوا وقاربوا وأبشروا»(٣٣٣)، «تلاقوْا بوجوه مبشرة»(٣٣٤).

وفي مجال القسم نجد أن صيغة القسم «والله»، التي هي أشيع صيغ القسم دورانا على ألسنة المسلمين في كل العصور والتي تكرر القسم بها في الحديث النبوي الكريم، مثل: «والله، لَلّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم...»(٣٣٥)، «... كلام الرجل في بيته: كلا والله، وبلى والله»(٣٣٦)، «أمَا والله إني لأخشاكم لله »(٣٣٧)... إلخ، هذه الصيغة لم يُقْسَم بها في القرآن إلا مرة واحدة، وعلى لسان الكافرين، وفي الآخرة لا في الدنيا: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾(٣٣٨).

كذلك مما يميز أسلوب القرآن في القسم عن أسلوب الحديث أنه قد تكرر فيه القسم بغير الله، إذ أقسم سبحانه بالطور والسماء والأرض والنجم والشمس والقمر والليل والنهار والضحى والفجر واليوم الموعود ويوم القيامة والشفع والوتر والبلد الأمين والقرآن والنفس والعاديات والصافّات وبحياة النبي الكريم: «لعمرك». فلو أن

(٣٣٠) ابن حنبل/ ٤/ ٤٠٢، ٤١١.

(٣٣١) البخاري/ بدء الخلق/ ١، والترمذي/ مناقب/ ٧٣، وابن حنبل/ ٤/ ٤٢٦، ٤٣٦.

(٣٣٢) البخاري/ جزية/ ١، ومسلم/ زهد/ ٦، والترمذي/ قيامة/ ٢٨، وابن ماجة/ فتن/ ١٨، وابن حنبل/ ٤/ ١٣٧، ٣٢٧.

(٣٣٣) البخاري/ إيمان/ ٢٩، ومسلم/ منافقين/ ٧٧، ٧٨، وأبو داود/ صلاة/ ٢٢٣، والنسائي/ إيمان/ ٢٨، وابن حنبل/ ٢/ ٤٤٦، و٣/ ٣٩٤.

(٣٣٤) الترمذي/ مناقب/ ٢٨، وابن حنبل/ ٤/ ١٦٥.

(٣٣٥) مسلم/ توبة/ ١.

(٣٣٦) أبو داود/ إيمان/ ٦، والموطأ/ نذور/ ٩٢.

(٣٣٧) رياض الصالحين/ ٦٠.

(٣٣٨) الأنعام: ٢٣.

الرسول هو مؤلف القرآن فكيف لم يفلت لسانه عليه السلام ولو مرة واحدة في أحاديثه فيقسم بشيء من ذلك؟ بل كيف حرم على أتباعه أن يحلفوا إلا بالله: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»(٣٣٩)؟

ومما يختص به القرآن أيضًا دون الحديث النبوي من أساليب القسم أن بعض أقسامه يسبقها حرف أو أكثر من حروف الهجاء، مثل: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾(٣٤٠)، ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾(٣٤١)، ﴿حٰمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾(٣٤٢)، ﴿يٰسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾(٣٤٣) مما لا نظير له في الأحاديث المشرفة.

كذلك نجد في القرآن الكريم تتابع عدة أقسام على شيء واحد، بينما لا يوجد ذلك في الحديث، مثل: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥﴾(٣٤٤)، ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾(٣٤٥)، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾(٣٤٦).

---

(٣٣٩) البخاري/ توحيد/ ١٣، والترمذي/ نذور/ ٨، والموطأ/ نذور/ ١٤.

(٣٤٠) ص: ١.

(٣٤١) ق: ١.

(٣٤٢) الزخرف: ١.

(٣٤٣) يس: ١.

(٣٤٤) المدثر: ٣٢ ـ ٣٥.

(٣٤٥) الفجر: ١ ـ ٤.

(٣٤٦) الليل: ١ ـ ٣.

وهناك صيغ قَسَمية في الحديث لا وجود لها في القرآن، مثل: «والذي نفسي بيده»، «والذي نفس محمد بيده»، «فوالذي لا إله غيره»، «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة»، «ورب محمد»، «فوالذي بعث محمدا بالحق»، «وَايْمُ الله»، «ومقلِّب القلوب»(٣٤٧).

* * *

(٣٤٧) لكاتب هذه السطور دراسة كاملة في هذا الموضوع بعنوان: «القسم بين القرآن والسنة» بصحيفة «المنهل» السعودية / العدد ٤٨٨/ ذو الحجة ١٤١١هـ ـ يونيه ١٩٩١م/ ١٦ ـ ٢١.